الباب الأول

عصر ابن نباتة وبيئته

لن نستطيع فهم الشاعر، مالم نعرض بالتفصيل لدراسة عصره، وما لم نجلُ أهم ما فيه من أحداث جسام توضح لنا بعض الجوانب الهامة من أدبه وسيرته، ولاسيما أنه يمثل أصدق تمثيل هذه الفترة التى كان فيها المماليك يحكمون أكثر البلاد العربية .

عاش ابن نباتة فى عصر السلاطين المماليك ، لكنه فى حقيقة الأمر كان يقضى أجمل أيامه فى ظلال الملوك الأيوبيين فى مملكة حماة وفى سائر بلاد الشام . فلكى نفهم أمير أدباء عصره لابد لنا من دراسة عصرين معاً: أولهما عصر سلاطين المماليك فى مصر لأنه عاش فيه ومات، وثانيهما عصر سلاطين الأيوبيين فى الشام لأنه انصرف فى معظم شعره لمدح أواخر ملوكهم فى حماة القاهرة .

نتناول فى دراستنا عصر الشاعر ابن نباتة، فنوضح الحياة السياسية، وما فيها من أحداث جسام، والحياة الاجتماعية ، بمختلف مظاهرها ، والحياة الفكرية فى شتى مناحيها الثقافية والعلمية .

الفصل الأول
الحياة السياسية

القسم الأول
الأيوبيون

ينتسب الأيوبيون إلى شاذىّ بن مروان[1] ، وقد اختلف المؤرخون فى أصلهم فذكر المؤرخ الموصلى عز الدين بن الأثير أن أصلهم من الأكراد الرواذيّة وهم فخذ من الهذبانية، وذكر أبو شامة المقدسى بدءأمرهم فقال : «كان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب ، وهو أكبر أبناء شاذىّ ، من بلدة (دوين) ، وهى بلدة من آخر بلادأذربيجان ممايلى الروم ، وأصلهما من الأكراد الرواذية ، وهذا القبيل هو أشرف الأكراد وقدماء العراق»[2] . وقد أنكر بعض الملوك الأيوبيين نسبتهم إلى الأكراد وادعوا النسب إلى بنى أمية[3] لكننا نرجح كلام ابن الأثير لأنهم إنما ادعوا ذلك ليعززوا موقفهم فى تسنم أريكة الملك .

الناصر صلاح الدين

استطاع الأيوبيون بما عرفوا به من شجاعة أن يؤسسوا ملكاً عظيماً، لكنه — مع الأسف — لم يدم طويلا بسبب الخلاف الذى كان يحدث بين ملوكهم ، فى الوقت الذى كان فيه الخطر الخارجى يهدد صرح الدولة العربية الكبرى التى أقامها البطل الأيوبى صلاح الدين .

لن أتحدث بالتفصيل عن ملوك الأيوبيين ، لكننى سأحاول — جهد المستطاع — أن أعرض للحياة السياسية بشكل عام يتناسب مع طبيعة بحثنا الأدبى ، وأقف قليلا عند ملوك حماة الأيوبيين فى هذا العصر وفى العصر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب جزء ١ ص ٣ — ٦ ، وشذرات الذهب ج ٤ ص ١٨٦ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ١٢٨ .

الذى يليه ، وذلك لما نعرفه من علاقة بين الشاعر وبين بعض ملوكهم المتأخرين

أقام صلاح الدين الدولة العربية الكبرى فى مصر والشام والحجاز واليمن والموصل وغيرها من الأصقاع ، واستطاع أن يخلف الفاطميين فى مصر ، والزنكيين فى الشام ، وأن يوحد هذين القطرين ، ويجمع شتات سائر البلاد العربية الأخرى استعداداً لخوض المعركة الفاصلة مع الغزاة الطامعين الذين اندفعوا نحو البلاد الإسلامية من الشرق حيث يلوح شبح التتار ، ومن الغرب حيث يتربص الصليبيون للانقضاض على هذه الدولة التى خلفت الفاطميين .

اتحد العرب تحت زعامة هذا البطل فاندحر الفرنجة فى معركة حطين الخالدة اندحاراً ما عرفوا له مثيلا ، وقد ذكر ابن الأثير ذلك ، وأشاد به قائلا : « ما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل إلى الآن بمثل هذه الوقعة »[١] . لم يكتف بهذه المعركة . بل شفعها بفتح بيت المقدس وأنقذ الصخرة المشرفة من أيديهم ، ونقل من حلب منبراً صنع خلال بضعة وعشرين عاماً وأقامه فى بيت المقدس ، وكان هذا النصر المبين أعظم فتح أحرزه هذا البطل ، وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك أيضاً فى قوله : « وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) غير صلاح الدين (رحمه الله) ، وكان ذلك فخراً وشرفاً »[٢] .

امتدت — بعد هذه الفتوحات الباهرة — أطراف هذه الدولة العربية الكبرى شرقاً وغرباً بعد أن اكتسح الغزاة الفرنجة وقهرهم ، وشملت مصر والشام والجزيرة وديار بكر واليمن والحجاز وغيرها .

كما أن بعض المؤرخين عدّ الحركة الأيوبية حركة تطهير دينى ضد الملحدين والباطنيين بالإضافة إلى التحرر السياسى . يذكر ابن واصل ذلك فى مقدمة كتابه مفرج الكروب : « كانوا أعظم ممن تقدمهم من الملوك شأناً ، وأجلهم سلطاناً فتح الله بهم القدس الشريف من أيدى الكافرين ، وأذل

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١١ ص ٢٠٣ ، وكتاب الروضتين جـ ٢ ص ٧٥ .
(٢) المرجع السابق جـ ١١ ص ٢٠٩ .

بسيوفهم أعناق الملحدين، وطهروا الديار المصرية من بدع الباطنية وشيدوا أركان الملة الحنفية »[١] .

لم يكتف صلاح الدين بهذه الفتوحات، بل عزم على اكتساح الأقطار المجاورة وإضعافها وخضد شوكتها حفظاً لهذه الدولة العربية الكبرى، لكيلا تقوى على مهاجمتها، وتكون مصدر خطر يهدد كيانها وأمنها. وضع خطة هذا الأمر الجليل سرًّا خلال رحلة صيد مع أخيه العادل، واتفق معه «أنه بعد ما يفرغ من أمر الفرنج يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعث أخاه إلى بغداد، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد أذربيجان — بلاد العجم — فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها »[٢] .

عاجلته المنية، فقضى نحبه مأسوفاً عليه سنة ٥٨٩ هـ، وكان إيذاناً بانقسام المملكة بعده، فالديار المصرية لولده عماد الدين، واليمن لأخيه ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب. ودمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين علي، أكبر أولاده، وحلب لولده الظاهر غياث الدين، والكرك والشوبك وجعبر لأخيه العادل، وحماة للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، وحمص والرحبة وغيرهما لأسد الدين شيركوه الصغير[٣] .

استفحل الخلاف بين هؤلاء الأمراء، فضعفت هذه الدولة بعد قوتها وقد دعاهذا الأيوبيين أن يوحدوا جهودهم، فأجمعوا كلمتهم على الملك العادل[٤] لكن أولاد العادل اختلفوا أيضاً فيما بينهم، وتخاصموا، وقاتل بعضهم بعضاً، فطمع الفرنجة من جديد في هذه الدولة العربية المتحررة ولاح شبح الخطر من جديد، فاضطربت الأحوال عندما هددوا دمياط واستولوا عليها سنة ٦١٦ هـ، ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب منها بعد أن هزمهم المصريون. دبّ الخلاف بين أبناء العادل فحارب بعضهم بعضاً، وقد ذكر المقريزي

---

(١) مفرج الكروب جـ ١ ص ١ .
(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢ ، ٣ ، والكامل جـ ١٢ ص ٣٧ .
(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٧ ، والروضتين جـ ٢ ص ٢٢٦ .
(٤) المرجع السابق جـ ١٣ ص ٦ .

هجوم أهل حلب على مدينة حماة سنة ٦٣٦ هـ ومحاصرة ملكها المظفر، ورحيلهم عنها بعد يأسهم من فتحها، واكتفوا وهم عائدون بهدم قلعة بارين الحصينة من أعمال مملكة حماة[١]. أوشكت هذه الدولة العربية أن يأفل نجمها، ولما يمض بعد على وجودها أكثر من ثمانين عاماً، ومن البشر من يعمر أكثر من ذلك، لكن الله تعالى شاء أن ينقذ هذه الدولة ويحفظها من الطامعين شرقيين وغربيين، وكان هذا على يد المماليك الذين وقفوا ببسالة أمام الخطر المندلع.

المظفر الأول

يحسن بنا — قبل أن نعرض لعصر سلاطين المماليك — أن نذكر ملوك حماة الذين حكموها ردحاً من الزمن لما فى بحثهم من علاقة وثيقة تجلّى لنا جانباً هامًّا من جوانب مدائح ابن نباتة، ولاسيما أنه عاش الشطر الأول من حياته فى كنف مليكها المؤيد وابنه الأفضل.

دخلت حماة القاهرة — كما يحلو لابن نباتة أن يدعوها — فى حوزة صلاح الدين سنة ٥٧٠هـ فى مستهل جمادى الآخرة[٢]، وقد هددها الفرنج عدة مرات أشير منها إلى مرتين: أولاهما سنة ٥٧٣هـ، وكادوا يملكونها قسراً وقهراً، ودام حصارهم لها أربعة أيام متواليات لكن شجاعة أهلها قهرتهم، وردتهم على أعقابهم خاسرين على الرغم من كثرة عدد مهاجميها[٣]. وثانيتهما سنة ٥٧٤هـ، وكانت أشد من المرة السابقة، لكن هذه المدينة القاهرة استطاعت أيضاً أن تقهر الفرنجة، وكان صلاح الدين — فى هذه الفترة قد عاد من مصر، وحل بظاهر حمص، فحمل إليه الحمويون الأسرى والأسلاب[٤].

ولّى صلاح الدين ابن أخيه المظفر الأول ملك حماة سنة ٥٧٤ هـ، وألحق به

---

(١) السلوك جـ ١ ص ٢٧٥، وشذرات الذهب جـ ٥ ص ٧٧.
(٢) السلوك جـ ١ ص ٢٧٥، وشذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٣٦.
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١٦٨، والروضتين جـ ١ ص ٢٧٥.
(٤) الكامل جـ ١١ ص ١٦٨، والروضتين جـ ٢ ص ٥.

المعرة ومنبج وكفر طاب وميّافارقين ، وسلّمه اللاذقية أيضاً بعد الفراغ من فتحها .

حارب المظفر أعداءه ، واكتسح كثيراً من البلاد ، حتى ضمّ إلى ملكه حرّان وما وراء الفرات ، واستطاع أن يستولى على السويداء ، لكن المنية عاجلته ، وهو فى أوج فتوحاته المظفرة ، فأخفى ابنه المنصور خبر وفاته حتى عاد به إلى حماة سرًّا ليدفنه فيها .

عرف المظفّر بإحسانه وتشييده كثيراً من المدارس فى مصر والشام ، فرُوى أنه بنى فى الفيوم بمصر مدرستين ، وثالثة فى الرها ، بلْه المدارس الكثيرة التى بناها فى عاصمة ملكه حماة . كما كان كعبة الشعراء ، ينتجعون مراده ، ويمدحونه مثل أسعد بن مماتى وغيره[١] .

المنصور الأول

أقر صلاح الدين المنصور الأول أبا المعالى ناصر الدين محمداً فى الملك خلفاً لأبيه سنة ٥٨٧ هـ[٢] ؛ لكنه خشى من تضخم مملكة حماة ، فاستعاد البلاد التى فتحها أبوه المظفر فى أواخر حياته ، وأبقى له منها فقط أقربها ، وهى المعرة وسلمية ومنبج وقلعة المضيق .

حارب المنصور الفرنج مراراً وكسرهم ، كما نشر العدل والأمن فى رحاب ملكه ، فقصده العلماء والأدباء ، ويروى أن بلاطه كان يحفل بأكثر من مائتى عالم وفقيه .

عرف بالتضلع من الفقه ، وقد أخذ علم الحديث فى شبابه عن الحافظ السلفى فى مدينة الإسكندرية ، كما ألف كثيراً من الكتب ، منها مؤلف تاريخى كبير على عدد السنين فى عدة مجلدات ، ومنها طبقات الشعراء فى عدة مجلدات أيضاً[٣] .

---

(١) تاريخ حماة ص ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، والروضتين جـ ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٢) السلوك جـ ١ ص ١٠٧ ، وشذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٨٩ .

(٣) تاريخ حماة ص ٦٠ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، والسلوك جـ ١ ص ٢٠٥ .

الناصر قلج أرسلان

أما الملك الناصر (قلج أرسلان) فقد تولى الملك بعد وفاة أبيه سنة ٦١٧ هـ بمساعدة خاله الملك المعظم صاحب دمشق[١] ، وهو ليس بصاحب الحق الشرعى ، ذلك لأن أخاه المعهود إليه بالملك كان بمصر عند خاله الملك الكامل[٢] ، وعندما عاد ليتسلمه حذره وخوفه من التعرض لأخيه[٣].

المظفر الثانى

لم يكفّ الملك المظفر الثانى عن المطالبة بحقه ، فحاصر حماة مع عسكر الكامل ، وراسل حكامها خفية ، واتفق معهم أن يفتحوا له باب النصر فى ساعة السحر ، فتم له ما أراد ، ودخل المدينة ، وتولى ملكه سنة ٦٢٦ هـ[٤] .

أما الملك الناصر فقد قبض عليه ، وسيق للملك الكامل الذى بعث به إلى مصر فاعتقل ، وحبس فى قلعة الجبل حتى مات[٥]

تسابق الناس لتهنئته ، وكان على رأس المهنئين شيخ شيوخ حماة الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وقد مدحه بقصيدة ، منها قوله :

تناهَى إليكَ الملكُ واشتدَّ كاهلُهْ ... وحلَّ بكَ الراجى فحُلَّتْ رواحلُهْ

ترحلْتَ عن مصرٍ فأَمحلَ ربعُها ... ولمّا حَلَلْتَ الشامَ روّضَ ماحلُهْ

وعزَّتْ حماةُ فى حِمًى أَنتَ غايُهُ ... بصولتِهِ تُحْمَى كُليبٌ ووائلُهْ

---

(١) السلوك ج ١ ص ٢٠٥ ، وشذرات الذهب ج ٥ ص ٧٨ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٥ .
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٥ .
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٦ ، ٢٤٤ .

وقد طالما ظلّتْ بتدبيرِ أهــوجٍ يَخيبُ مُرجِّيهِ ، ويُحرَمُ سائلُهْ[١]

لقد عزّت حماة فى عهده ، وأصبحت كعبة بلاد الشام جمعاء ، ويذكر المقريزى أنها أصبحت ملجأ لكل من انتمى للسلطان الملك الصالح ، ومنها يرد إليه بمصر كل ما يتجدد بالشام خاصة والمشرق عامة[٢] .

توافد عليه كثير من الشعراء نذكر منهم جمال الدين بن مطروح الذى نزل عنده[٣] ، كما توافد عليه العلماء ، لأنه كان مشغوفاً بالعلم ، فاستخدمهم فى بناء الأبراج الفلكية وإقامة الطواحين المائية على العاصى . نذكر من هؤلاء الشيخ علم الدين قيصر الذى مازالت بعض الأرحية المائية ومقاييس الماء فيها تشهد بماله من فضل عظيم فى هذا المضمار .

المنصور الثانى

ولى المنصور الثانى (سيف الدين بن محمد) الملك سنة ٦٤٢ هـ وكان حدثاً ، فتولى أمر مملكة حماة مجلس وصاية مؤلف من قاضى القضاة شيخ شيوخ حماة شرف الدين عبد العزيز الأنصارى ، وسيف الدين طغريل ، والطواشى مرشد ، والوزير بهاء الدين بن التاج ، وكان هؤلاء الأوصياء لا يبتون بأمر هام من أمور الدولة مالم يرجعوا بالمشورة إلى أم المنصور غازية خاتون بنت الملك الكامل .

كانت الدولة الأيوبية تلفظ آخر أنفاسها ، ولم يكد يبدأ ممارسة سلطته فى الملك حتى أصبح المماليك أصحاب السيادة ، يستمد منهم ملوك حماة الأيوبيون سلطتهم .

---

(١) تاريخ حماة ص ٦٤ ، ٦٥ ، ١٢٢ ، وديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى ص ٤٠٣ .

(٢) السلوك ج ١ ص ٣٠٢ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠٢ .

أحسن هؤلاء السلاطين الجدد معاملة الملوك الأيوبيين فى معظم الأحيان أحسن معاملة ، ويروى أن أعداء المنصور دسوا للظاهر بيبرس — خلال زيارته حماة — منديلاً يحمل كثيراً من الشكاوى ضد ملكها ، ولكن بيبرس دفع هذا المنديل إليه ، دون أن يفتحه لمكانة المنصور من نفسه . وهو بدوره قد تناوله وأحرقه ، لكيلا يعرف شاكيه والحاقدين عليه .

اكتسحت فى هذه الفترة جيوش التتار بلاد الشام كما رأينا من قبل ، وقدم هولاكو على رأس هذه الجيوش عام ٦٥٧ هـ ، وفر المنصور إلى مصر بحريمه وأولاده[١] ، وطلب نجدة السلطان قطز ، فخرج معه لمحاربتهم[٢] ، فولوا الأدبار مدحورين ، وهرب معهم « خسروشاه » عامل هولاكو على حماة ، وعاد المنصور إلى دفة ملكه ، فمدحه شاعره شرف الدين الأنصارى قائلا :

رُعْتَ العِدا فضَمِنْتَ ثلّ عروشِها ... ولَقِيتَهـا فأَخذْتَ فَلَّ جيوشِها
فغدا لسيفِكَ فى رقابِ كُماتِها ... حَصْدُ المنازلِ فى يَبيسِ حشيشِهَا
وطَوَيتَ عن مصرٍ فسيحَ مراحلٍ ... ما بينَ بِرْكتِهَا وبينَ عريشِهَا
حتى حفظْتَ على العبادِ بلادَها ... من رُومِها الأَقصَى إلى أُحبوشهَا
فَرشَتْ حماةُ لوطءِ نعلِك خدَّها ... فَوطِئْتَ عينَ الشمس منْ مفروشهَا
وكذا المعرَّةُ إذ ملكتَ قيـادها ... دَهِشَتْ سروراً سارَ فى مدَهوشها[٣]

المظفر الثالث

أقام السلطان قلاوون المظفر الثالث (تقى الدين محموداً) ملكاً بعد وفاة أبيه سنة ٦٨٣ هـ ، وقد حفظ له المظفر هذا الجميل فسار معه لفتح قلعة المرقب

---

(١) السلوك جـ ٢ ص ٤٢٣ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٤٤٢ .
(٣) تاريخ حماة ص ٧٢ ، وديوان شرف الدين الأنصارى ص ٢٦٩ — ٢٧١ .

وكان معهما عمه الأفضل والأمير أبو الفداء ، وتم فتحها بعد أن أعطى أهلها الأمان ، وزار السلطان قلاوون حماة، واحتفى به ملكها أيما احتفاء[١]. انقطع حكم ملوك الأيوبيين فترة من الزمن ،لأن سلطان مصر الناصر محمد عين بعد وفاة المظفر الثالث سنة ٦٩٨هـ، أحد الأمراء المماليك بعد استيلائه عليها[٢] وهو الأمير « قراسنقر الجوكدار » [٣] . فحضر إلى حماة ،ونهب دار الملك المظفر ، وشرد أسرته وجماعته . خلف هذا الأمير أمراء آخرون مثل« زين الدين كتبغا » و« سيف الدين قبجق » و« أسندمر » . وقد أحب هذا الوالى الأخير حماة ، وود البقاء فيها عندما صدر أمر نقله إلى حلب ،غير أن الناصر محمداً عين أبا الفداء ملكاً عليها مع توابعها ، وهكذا عادت حماة ثانية إلى حكم ملوكها الأيوبيين ، وكان ذلك آخر مرة لها فى الملك .

المؤيد أبو الفداء

هو المؤيد إسماعيل بن الملك الأفضل على بن المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه ، ولابد لعودة الأسرة الأيوبية من سبب ، ويذكر لنا المؤرخون أن أبا الفداء قدم الوفاء للناصر محمد عند ما أقام فى الكرك — كما رأينا — سنة ٧٠٨هـ ، وقد انضم إلى حاشيته وهو فى منفاه، كما أن أمير عشائر البادية مهنا بن عيسى [٤] لم يكن راضياً عن النائب أسندمر ، فسافر إلى القاهرة وطلب من الناصر حين عودته تعيين أبى الفداء . وسبق له أن وعده بملكها[٥] ، وتم له ذلك سنة ٧١٠ هـ

لقب أبو الفداء بالملك الصالح[٦] أولا ، ثم بالملك المؤيد، وكان يزور مصر كل عام ، فيحمل للسلطان الهدايا النفيسة ، وكان يطلب من نوابه أن

---

(١) السلوك ج ١ ص ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، وتاريخ حماة ص ٧٢ .
(٢) معجم الأنساب ج ١ ص ١٥٤ ، وتاريخ حماة ص ٧٦ .
(٣) السلوك ج ١ ص ٨٨١ ، والبداية والنهاية ج ١٤ ص ٥ .
(٤) السلوك ج ٢ ص ٨٧ .
(٥) الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٧١ .
(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٣٧١ .

يكتبوا إليه : « يقبل الأرض بين يديه » ، و« المقام العالى الشريف المؤيدى العمادى »[١]، ويذكر فى العنوان : « صاحب حماة » ، ويكتب إليه الناصر محمد ، « أخوه محمد بن قلاوون » و « أعز الله أنصار المقام الشريف العالى السلطان الملكى المؤيدى العمادى » لم يكن أبو الفداء يحمل لقب الملك — على ما نعتقد — فى السنين العشر الأولى من حكمه . ويعنى هذا أنه كان نائباً عن السلطان الناصر محمد[١] . وأصبح ملكاً سنة ٧٢٠ هـ . إذ منح هذا اللقب الملكى .

تمتع بالسلطة المطلقة ، فليس لأى نائب أو وزير سلطة عليه ، وقد أركب فى القاهرة بشعار السلطنة فى موكب حافل ، والأمراء يمشون فى خدمته حتى أرغون النائب[٢].

ذكر الأسنوى وغيره أنه كان عالماً جامعاً لأشتات العلوم ، وهو أعجوبة من أعاجيب الدنيا ، ماهر فى الفقه والتفسير والأصول والنحو وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب والعروض والتاريخ وغير ذلك من العلوم[٣] .

فلا غرابة إذا رأينا بلاطه كعبة رجال العلم والأدب ، ينتجعون مراده ، فيهيئ لهم الفرش والآلات ، ويخصص لهم الرواتب الكثيرة ، نخص بالذكر منهم أثير الدين الأبهرى الحكيم ، والمقرى الفيومى صاحب المصباح المنير .

أما الشعراء فكان سوق عكاظهم ، يؤمونه من كل حدب وصوب وينشدونه المدائح الغر ، وينشدهم ما ينظمه من الشعر[٤] ، نخص بالذكر منهم ابن نباتة ، والصفى الحلى ، والشهاب محموداً وغيرهم .

لم تشغله أمور ملكه عن التأليف ، فصنف فى كل علم تصنيفاً نفيساً أو تصانيف[٥] نذكر منها تاريخه المشهور (المختصر فى أخبار البشر) ، وقد قرظه ابن نباتة بقوله :

---

(١) السلوك جـ٢ ص ٣٥٤ ، والدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٧١ .
(٢) تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٢٩٧ .
(٣) السلوك جـ ٢ ص ٣٥٤ .
(٤) تاريخ الأسنوى ، مخطوط فى دار الكتب الوطنية بحماة وليس له رقم . ورقة ٦٨ .
(٥) تاريخ حماة ص ١٢٦ ، والسلوك جـ ٢ ص ٣٥٤ .
(٦) الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٧٢ ، والسلوك جـ ٢ ص ٣٥٤ .

للهِ تاريخٌ لهُ رونقٌ كرونق الحبّاتِ فى عقدِها
كادتْ تواريخُ الورى عندَهُ تموتُ للخجلةِ فى جلدِها[١]

ومن تصانيفه المشهورة أيضاً: (تقويم البلدان) ، ونظم الحاوى فى فقه الشافعى « نظماً مشحوناً بالفوائد »[٢] وكتاب (الموازين) ، وكتاب (الكناش) ، وهو فى عدة مجلدات ، تجمع فيه النحو والصرف والمنطق وعلم الهيئة وغير ذلك من العلوم[٣] .

الأفضل محمد

تولى الملك بعد وفاة أبيه المؤيد سنة ٧٣٢ هـ ويذكر لنا المقريزى أن أمه توجهت إلى دمشق ، وتوسلت لدى نائب الشام الأمير تنكز ، وقدمت له جواهر ، وسألته إقامة ولدها الأفضل مكان أبيه . كتب تنكز بدوره إلى السلطان يخبره بوفاة المؤيد ، فبعث السلطان رسالة يتأسف فيها على الملك الراحل ، ويولى ابنه مكانه ، وطلب من نائبه أن يجهزه ، ويبعث به إلى مصر .

توجه الأفضل إلى القاهرة . وفيها ركب من المدرسة المنصورية بين القصرين وهو بشعار السلطنة ، وبين يديه الغاشية ، وقد نشرت على رأسه الأعلام الثلاثة ، وسار فى موكب كبير إلى باب زويلة ، وصعد إلى قلعة الجبل ، ومثل بين يدى السلطان ، وخلع على الأمراء ، ولقبه فى ذلك اليوم بالأفضل ، وكان يدعى — من قبل — بالملك المنصور[٤] . أحبه الناس فى مطلع حكمه ، لأنه سار فيهم سيرة عادلة ، وكان مقبول الشفاعة لدى سلطان مصر ، واستطاع أن يتوسط لإزالة الخلاف بين السلطان وبين أمير العرب مهنا بن عيسى ، وعاد هذا الأمير إلى مكانه فى تل أعدا .

---

(١) السيف المهند ، ص ٩٣ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٧٢ ، والسلوك جـ ٢ ص ٣٥٤ ، وتاريخ حماة ص ١٢٦ ، وتاريخ ابن الوردى ص ٢٩٧ .
(٤) السلوك جـ ٢ ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .

تغيرت حال الأفضل فجأة ، فأعرض عن الحياة الدنيا ، وانصرف إلى الزهد والعبادة . ولا نعرف سبب ذلك ، وسوف نوضح هذا الأمر خلال حديثنا عن ابن نباتة .

اضطربت أمور مملكة حماة لانصراف مليكها عن تدبير أمورها ، فطمع بعض أعدائه ، باقتطاع بعض أطرافها ، وهاجم الأعراب كثيراً من إقطاعاتها[١] .

والغريب أن هذا الزهد انقلب إلى عنف وشدة واستبداد ، فتغير حاله تغيراً كبيراً ، وقد ذكر المؤرخون أنه أمر بحبس طاهر بن قرناص ، وهو من كبار رجال حماة ، فعذبه بين جدارين ، وتركه يموت جوعاً[٢] .

كانت هذه الحادثة سبب عزله ، فنقل إلى دمشق أميراً سنة ٧٤٢ هـ ، وعادت حماة نيابة كغيرها من مدن الشام . وتولى أمرها بعده مملوك أبيه « طقز دمر »[٣] ، وبذلك يكون الأفضل آخر الملوك الأيوبيين الذين حكموا مملكة حماة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك .

لم يلبث الأفضل فى دمشق إلا يسيراً حتى وافته المنية ، فعادت به أمه إلى حماة ودفنته فى مدينة أجداده الأقدمين .

القسم الثانى

المماليك البحرية

نكتفى خلال دراستنا الحياة السياسية بالتحدث عن المماليك البحرية ، لأن ابن نباتة عاش فى عصرهم ، ونضرب صفحاً عن المماليك البرجية .

تفاقم الخلاف — كما ذكرنا — بعد صلاح الدين والعادل ، وقد أدى هذا الخلاف إلى ضياع السلطان وانتقاله إلى مماليكهم .

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٣٨٩ .

(٢) تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٣٣٣ .

(٣) الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٣٨٩ ، وتاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص ٣٣٣ .

كانت الفترة الأخيرة من عصر الأيوبيين مشحونة بالأحقاد والضغائن ، ويذكر المؤرخون أن السلطان الأيوبى « توران شاه » نجل الملك الصالح نجم الدين أيوب اختلف مع مماليك أبيه ، فعاملهم بالقسوة ، وأخذهم بالعنف كما أساء من طرف آخر لأرملة أبيه شجرة الدر التى قدمت له من قبل مساعدة كبرى ليتسلم السلطنة بعد أبيه ، حيث أخفت عن الأمراء موته ، كيما تحفظ له حقه فى السلطان عندما كان بعيداً فى حصن « كيفا » من أعمال الموصل .

يذكر المقريزى أنه لما مات أحضرت زوجه شجرة الدر الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسناً ، وأعلمتهما بموت السلطان ، وأوصتهما بكتمان موته خوفاً من الفرنج[١] ، أما أمور الدولة فقد صرّفها ودبرها الطواشى محسن حتى عاد توران شاه من الموصل[٢].

استفحل خطر الفرنج ، وافتتح السلطان العائد حياته بمحاربتهم وأبلى أحسن البلاء ، فهزمهم هزيمة نكراء فى معركة « فارسكور » و« المنصورة »[٣] وقبض على لويس التاسع سنة ٦٤٧هـ، واقتاده أسيراً، وسجنه فى دار « ابن لقمان » بالمنصورة ، بعد أن كبل بالأغلال ، ووكل أمره إلى الطواشى جمال الدين صبيح المعظمى ، يحفظه مكرماً غاية الإكرام[٤].

افتدى لويس التاسع نفسه بالمال ، وبدا له أن يعود ليغسل عن نفسه عار الهزيمة النكراء التى لحقت به ، فسخر منه الشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح ، ونظم قصيدة ساخرة[٥] يقول فيها :

قُلْ للفرنسيسِ إذا جِئتَــه مقالَ نُصْحٍ مِنْ قَوْلٍ فصيحْ
آجرَكَ اللهُ عــلى ما جــرى مِنْ قتلِ عبّادِ يسوعَ المسيحْ

---

(١) السلوك جـ ١ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٤٦ ، والسلوك جـ ١ ص ٣٤٣ .
(٣) السلوك جـ ١ ص ٣٥٣ . (٤) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٦٦ .
(٥) ذكر أحمد بن على الحريرى، أن الملك لويس التاسع بعث إلى السلطان المعز أيبك بعد إطلاق سراحه وعودته إلى بلاده بكتاب يتوعده ، فكتب السلطان الجواب « وضمنه هذه الأبيات » (الإعلام والتبيين (مخطوط) ورقة ١٤٠)

أَتيتَ مصرَ تبتغى مُلكَهـا تَحسبُ أنَّ الزمَر يا طبلُ ريحْ
فساقكَ الحَيْنُ إلى عسكرٍ ضاقَ بهِ عن ناظريكَ الفسيحْ
وكلُّ أَصحـابِك أَودعتَهمْ بسوءِ تدبيرِكَ بطنَ الضريحْ
خمسونَ أَلفاً لا يُرى منهمُ إلا قتيلٌ أَوَ أَسـيرٌ جريحْ
فـردّكَ اللهُ إلى مثلِهـا لعلّ عيسى مِنْكمُ يَستريحْ
إنْ كانَ «باباكمْ» بذا راضيًا فرُبّ غش قد أَتى مِنْ نَصيحْ
فاتّخـذوهُ كاهنـاً إنَّهُ أَنصحُ مِنْ شِقٍّ(١) لكمْ أَو سَطيحْ(٢)
وقُلْ لهمْ إنْ أَضمروا عـودةً لأَخذِ ثأْرٍ أَو لقصدٍ صَحيحْ
دارُ ابنِ لُقْمـانَ على عهدِها والقيدُ باقٍ والطواشى صَبيحْ(٣)

أصبحت دار ابن لقمان مضرب الأمثال فى العالم ، ويروى أن لويس التاسع هاجم مع عدد من ملوك أوربا تونس ، ونزل بساحل قرطاجنة ، وبقى هناك ستة أشهر ، ويروى المقريزى أن شاعراً من أهل تونس يدعى أحمد بن إسماعيل الزيات ، سخر من ملك فرنسا ، وأنشده قائلا :

يا فرنسيسُ هذهِ أختُ مصرٍ فتأَهَّبْ لِمـا إليـه تَصيرُ
لكَ فيها دارُ ابنِ لُقْمانَ قبرًا وطواشيكَ مُنكرٌ ونكيرُ(٤)

فكان هذا القول شؤماً عليه ، ومات بعد ذلك .

لم يطل حكم توران شاه ، ويروى أنه توعد شجرة الدر بالسوء ، فبعثت للأمراء

---

(١) شق اسم كاهن من كهان العرب .

(٢) سطيح : هو كاهن بنى ذئب ، وكان يتكهن فى الجاهلية ، وقد روى أن النعمان بن المنذر وجه إليه ابن أخته عبد المسيح بن نفيلة الغسانى لكى يسأله عن رؤيا كسرى يوم مولد الرسول .

(٣) ديوان ابن مطروح ص ١٨١ ، وبدائع الزهور جـ ١ ص ٨٧ ، ٨٨ ، والنجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٠ ، والسلوك جـ ١ ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٥ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ١ ورقة ٣٥٩ . ، والإعلام والتبيين (مخطوط) ورقة ١٤٠ ، ١٤١ .

(٤) السلوك جـ ١ ص ٣٦٥ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ ١ و ٣٦٠ .

والممالك البحرية تقول لهم: « اقتلوا توران شاه وعلىّ رضاكم بكل ما يمكن»[١]. فقتل السلطان شر قتلة دونما رحمة أو شفقة ، إذ مات حريقاً غريقاً ، وبقيت جثته ثلاثة أيام متواليات ملقاة فى العراء ، ولم تدفن حتى تشفع فى دفنه رسول خليفة بغداد[٢] .

هكذا دالت دولة الأيوبيين ، ولما يمض بعد على قيامها ست وثمانون سنة ، انتقل الملك بعدها إلى شجرة الدر وكانت أول من حكم بعد أن أجمع أمراء المماليك على توليتها أمر السلطنة ، وأن يكون الأمير عز الدين بن أيبك مدبر مملكتها معها[٣] . خطب باسمها على المنابر بمصر والقاهرة [٤] وكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ، ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب »[٥].

كما نقش اسمها أيضاً على الدينار والدرهم ، وكانت توقع باسم والدة خليل [٦] . بلغ الخليفة المستنصر بالله أمر مبايعة شجرة الدر ، فنفس عليهم ذلك ، وأرسل إلى أمراء مصر من المماليك يقول لهم : « أعلمونا إن كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة ، فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »[٧] .

كما أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام تحدث عن هذا الأمر فى بعض تصانيفه فى معرض حديثه إذا ما ابتلى المسلمون بولاية امرأة ، ونكتفى بالإشارة

---

(١) بدائع الزهور جـ ١ ص ٨٨ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٢ .
(٣) بدائع الزهور جـ ١ ص ٨٩ ، والبداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٩ .
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٢ ، والبداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٩ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٤ .
(٥) بدائع الزهور جـ ١ ص ٨٩ ، والمنهل الصافى و ١٧٦ .
(٦) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٤ .
(٧) بدائع الزهور جـ ١ ص ٨٩ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ٣٤ .

هنا إلى هذا الأمر دون التفصيل فيه[١] . تزوجت السلطانة مدبر أمر ملكها بناء على رأى القضاة والأمراء ، ثم خلعت نفسها ، وبايعت زوجها ، فلقب بالمعز ، ولكنها عندما شعرت أنه بدأ يميل إلى غيرها من النساء تآمرت عليه وهو فى الحمام ، وخنقته بمعونة بعض مماليكها ، وانتقل السلطان بعد ذلك إلى سيف الدين قطز لأن ابنه علياً كان صغير السن . تجرى كل هذه الحوادث والبلاد تجابه خطرين : خطر الفرنجة الذين يريدون أن ينتقموا من المسلمين ، وخطر التتار الطامعين الذين يريدون أن يطمسوا ما تبقى من معالم الحضارة الإسلامية من الوجود .

المظفر قطز

تسلم المماليك دفة الحكم ، واستطاعوا بالرغم من اختلافهم أن يحفظوا هذه البلاد من شر الطامعين ، ويقفوا أمام جحافل القادمين من الشرق والغرب . جابه قطز التتار ، وحاربهم حرباً صادقة ، وكسرهم فى عين جالوت[٢] وهو يكر بنفسه فى المعركة ، ويصيح : « واإسلاماه » ثلاث مرات ، ويدعو ربه « يا ألله ، انصر عبدك قطز على التتار »[٣] . انكسر هولاكو بجيوشه سنة ٦٥٨ هـ ، فدخل السلطان دمشق ، وطهر بلاد الشام من فلولهم ، وقرر أن يعود إلى القاهرة ، فازدانت لقدوم البطل الذى قهر هؤلاء الذين خربوا بغداد ، ولما طلع اليوم الذى يصل فيه قطز إلى القاهرة ، نادى المنادى : « ترحموا على الملك المظفر ، وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس »[٤] . لقد فتك بيبرس بسلطانه ، لأنه رفض أن يوليه نيابة حلب ، وتربع على عرش السلطنة مكانه ، لكنه شعر أن الرأى العام كان حانقاً عليه ، فأراد أن يعيد

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٤ .

(٢) السلوك جـ ١ ص ٤٣٠ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٤ .

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٤١ .

(٤) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٢ ، والسلوك جـ ١ ص ٤٣٧ .

ثقة الناس به ، وخير ما يفعله أن يعيد الخلافة الإسلامية إلى الوجود بعد أن طوّح بها التتار فى بغداد ، كيما يؤيد حكمه ، ويشد بذلك أزره .

هكذا بدأ حكم المماليك ، يقتل قويهم ضعيفهم ، ويغدر المولى بسيده ، ليسلبه الحكم والسلطان . والغريب أن عصرهم كان أخطر فترة مرت فى التاريخ الإسلامى ، لأنهم — كما ذكرنا — مهددون بخطرين جسيمين ، يضاف إليهما خطر داخلى آخر ، وهو عدم الاستقرار والتنازع بين الأمراء أنفسهم ، ومع كل ذلك فقد ثبتوا فى الخطوب ، وانتصروا فى الحروب ، وكان عصرهم بحق عصر ازدهار أدبى وعلمى . ومازالت آثارهم شاهدة على ما نقول ، تحتاج لنفض هذا الغبار من الإهمال الذى تراكم عليها مع تطاول الأزمان .

يبلغ عدد سلاطين المماليك البحرية أربعة وعشرين سلطاناً ، أولهم : الملك المعز عز الدين أيبك زوج شجرة الدر ، وآخرهم الصالح أمير حاج بن شعبان الذى خلفه برقوق الجركسى سنة ٧٨٤هـ .

لن أتحدث طويلا عن حياة سلاطين المماليك ، بل سأكتفى بالوقوف عند سرواتهم ممن يهمنا أمرهم . أما أسرة قلاوون فكان لها النصيب الأوفى فى الحكم ، إذ حكم من هذه الأسرة وحدها أربعة عشر سلطاناً ، تولى بعضهم السلطنة أكثر من مرة . نذكر مثلا أن الناصر محمداً تولاها ثلاث مرات ، وابنه الناصر حسناً تولاها مرتين .

نذكر — بالإضافة إلى الناصرين — من ملوك هذه الأسرة الكامل شعبان ابن الناصر محمد ، وأخاه المظفر حاجى ، إذ أن ابن نباتة عرفهم ، وعرّض بهم فى شعره ، كما سنرى ذلك فى مكانه من هذا البحث .

الناصر محمد

تولى الناصر محمد الملك بعد مقتل أخيه الأشرف سنة ٦٩٣ هـ ، وله من العمر تسع سنين[١] ، فلم يبق فيه أكثر من عام ، وعاد للسلطة ثانية إثر مقتل لاجين سنة ٦٩٨ هـ بعد أن نفى عنه مدة أربع سنوات تقريباً[٢].

---

(١) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٢٩ . (٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٩ .

سار الناصر محمد مرتين إلى بلاد الشام لمحاربة جحافل التتار الزاحفين على البلاد الإسلامية ، وقد صحبه فى المرة الأولى الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله والقضاة الأربعة ، وكان معه قاضى القضاة الشافعى آنئذ شيخ الإسلام تقى الدين بن دقيق العيد أستاذ ابن نباتة الأول . لقى الناصر « غازان » فى معركة ضارية قرب سلمية[1] ، واندحر المغول على أثرها ، فخاف أهل دمشق شر التتار فأرسلوا إلى قائدهم بعلمائهم يطلبون منه الأمان ، نذكر منهم بدر الدين بن جماعة ، وزين الدين الفارقى ، وتقى الدين بن تيمية ، ونجم الدين بن صصرى ، وجلال الدين القزوينى وغيرهم .

رحل غازان عن دمشق ، وترك بها أميراً تترياً اسمه « قطلو شاه بك »[2] ومعه جيش من التتار ، أراد الناصر أن يغسل عن نفسه عار الهزيمة فتوجه نحو الشام عندما أخبره الأتابكى بيبرس أن التتار بدأوا يزحفون من جديد وعلى رأسهم غازان . أسرع للقائهم سنة ٧٠١ هـ . ودارت رحى معركة حامية الوطيس على أرض « مرج راهط »[3] تحت جبل غباغب ، فكان النصر فى هذا اليوم الأغر للناصر ، إذ دخل دمشق ، ومعه الخليفة الجديد المستكفى بالله والقضاة الأربعة ، وقد بدت المدينة مزدانة بأحلى زينة . حاول غازان العودة لاستعادة بلاد الشام بعد أن جمع فى همذان جنده من جديد . إلا أنه مات سنة ٧٠٣ هـ مسموماً ، فقال الشيخ علاء الدين الوداعى[4] :

قد ماتَ غازانُ بلا عِلَّـةٍ ولم يَمُتْ فى السنةِ الماضيهْ
بل شنَّعوا فى موتهِ فانثنى حيًّا ولكنْ هذه القاضيهْ

ساءت الأمور بينه وبين بيبرس الجاشنكير ، والنائب سلار ، فادعى أنه عازم على الحج سنة ٧٠٨ هـ ، لكنه توجه نحو الكرك . فبويع بعده بيبرس خلفاً له ، لكن الناس لم يكونوا راضين عن حكمه .. لأنهم كانوا يحبون الناصر ،

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٠ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٠ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٥ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

وزاد من نقمتهم عليه تأخر فيضان النيل ، موردها الخصب ومفيض الخير عليهم ، فضج الناس بالشكوى بعد أن ارتفع سعر الخبز . وعم الغلاء أرض الكنانة ، فأنشد النصير الحمامى قوله :

إنْ عَجَّلَ النوروزُ قبلَ الوفَا عَجَّلَ للعالمِ صَفْعَ القَفَا
فقد كَفَى مِنْ دمعِهِمْ ما جَرَى وما جَرَى من نَيلِهِم ما كَفَى[1]

كما أن العوام صنعوا كلاماً ولحنوه ، وصاروا يغنونه علناً فى الساحات العامة ، يطلبون فيه عودة الناصر محمد :

سُلطاننـــا رُكينْ[2] ونايبـــو دُقيـــنْ[3]
يجينا الماىْ من إينْ
هاتوا لنـــا الأَعرجْ[4] بيجى المىْ يدحرجْ[5]

انتشر هذا الغناء بين الناس وتردد فى محافلهم الخاصة والعامة ، فبلغ مسامع السلطان بيبرس ، وأمر بالقبض على ثلثمائة شخص ، ضرب منهم جماعة بالمقارع ، وأشهرهم بالقاهرة ، وقطع ألسنة بعضهم الآخر .

أما الناصر محمد فلم يقف مكتوف اليدين ، بل توجه إلى دمشق ، ودخلها فى موكب عظيم ، فمشى جميع النواب فى ركابه . ودخلوا تحت طاعته ، وشرع يحكم الشام ، وخطب له فيها على المنابر ، وأقر كل نائب على منطقته .

عاد الناصر للسلطنة للمرة الثالثة بعد أن تأكد من وقوف الناس فى جانبه ، فهرب بيبرس من القاهرة متجهاً نحو الكرك . فقبض عليه ، وخنق بين يديه .

---

(١) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٥٠ .
(٢) ركين : كان لقب السلطان ركن الدين بيبرس الجاشنكير فسماه العوام (ركين) .
(٣) دقين : لقب الأمير النائب سلار ، وكان أجرد ، فى حنكه بعض الشعرات ، لأنه كان من التتار ، فسماه العوام (دقين) .
(٤) الأعرج : لقب أطلقه العوام على السلطان الناصر لأن به بعض العرج .
(٥) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٥٠ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٦٠ .

أشار شعراء العصر لهذه الحادثة ، فقال علاء الدين الوداعى فى شعره :

الملكُ الناصرُ قد أَقْبَلَتْ دولتُهُ مُشْـرِقَةَ الشمسِ
عــادَ إلى كرسيِّهِ مِثْلما عادَ سليمانُ إلى الكُرسى[1]

وقال الصفدى أيضاً :

تثنَّى عِطْفُ مصرٍ حينَ وافَى قدومُ الناصرِ الملِك الخبيرِ
فَذَلَّ الجنشكيرُ بلا لقــاءٍ وأَمْسَى وَهْوَ ذو جأْش نكيرِ
إذا لم تَعْضُدِ الأَقدارُ شخصًا فأَوَّلُ ما يُراعُ مِن النصيرِ[2]

يعد هذا السلطان من أعظم سلاطين المماليك ، وأطولهم حكماً[3] ، بلغت مدة حكمه فى المرات الثلاث ثلاثاً وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وقد استطاع تأديب التتار والفرنجة ، فرحل مراراً إلى بلاد الشام ليلتقى بهم . إلا أنهم كانوا يخشون لقاءه ونزاله .

شرع — بعد دفع الخطر الخارجى واستتباب الأمن — ينظم البلاد ، فقسم مصر والشام إلى أقسام جديدة ، دعيت بالروك الناصرى[4] ، كما ألغى نيابة السلطنة ، لأنه أدرك أنها مصدر خطر على السلطان نفسه . ويعد عصره من أزهى عصور سلاطين المماليك .

---

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٦ .
(٢) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٦ .
(٣) والسلوك جـ ٢ ص ٥٢٤ .
(٤) بدائع الزهور جـ١ ص ١٥٩ ، والسلوك جـ ٢ ص ٥٢٤ .

الكامل شعبان

نقف عند الكامل شعبان بن الناصر محمد ، بويع بالسلطنة بعد موت أخيه الملك إسماعيل بعهد منه . ولبس شعار السلطنة سنة ٧٤٦ هـ ، وفيه يقول ابن نباتة :

طلعةُ سلطانِنا تَبدّتْ بكامِلِ السعدِ فى الطلوعِ
واعْجَبْ لهاتيكَ كيفَ أبْدتْ هلالَ شعبانَ فى الربيعِ[1]

استبد الكامل بالأمر وساءت سيرته . وعزل كثيراً من نوابه ، وأمر بالقبض عليهم . وحاول قتل أخويه ، وذلك بإدخالهما فى مكان تحت « الدهيشة » ثم بنى عليهما بالحجر ، وجعل ذلك المكان قبراً لهما .

نتج عن هذا النزاع تمرد بعض جماعته الأقربين ، فقبضوا عليه ، وخنقوه فى السجن سنة ٧٤٧ هـ بأمر من أخيه ، فقال فى ذلك الصفدى :

بيتُ قلاوونَ سعاداتُه فى عاجلٍ كانتْ بلا آجلِ
حَلَّ على أملاكِه للرّدى دَيْنٌ قدِ استوفاهُ بالكامل[2]

المظفر حاجى

تولى السلطنة بعد مقتل أخيه الكامل ، وفيه يقول ابن نباتة :

يا إمام الورَى ، مَضَى نصفُ عامٍ مِنْ وصولى ولمْ يصلْ لىَ رُبعُ
سنَةٌ إن غَفَلْتَ عنىَ فيها كَسَرتْنى وكيفَ لا، وهىَ سبعُ[3]

---

(١) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٨٣ ، والديوان ص ٢٢٠ ، وأعيان العصر (مخطوط مصور) جـ ٣ ق ١ ورقة ٧٦ .

(٢) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٨٦ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ٧٨ .

(٣) بدائع الزهور جـ١ ص ١٨٣ ، والديوان ص ٢٢٠ ، وأعيان العصر (مخطوط مصور) جـ ٣ ق ١ ورقة ٧٦ .

ساءت أمور المظفر ، واختلف مع الأمراء وعكف على تربية الحمام يلهو بذلك ، فاهتبل الأمراء منه ذلك ، وثاروا عليه ، فنشبت بينه وبينهم معركة وقع فيها أسيراً ، فقبض عليه ، وسجن ومات مخنوقاً ، وقد أشار الصفدى إلى ذلك بقوله :

أيُّهـا العـاقلُ اللبيبُ تفكَّرْ ... فى المليكِ المظفَّـر الضِّرغامِ
قد تَمَادَى وازدادَ فى البَغْيِ حتَّى ... كانَ لِعْبُ الحَمامِ حَدَّ الحِمامِ[1]

الناصر حسن

تولى الناصر حسن بن محمد السلطنة بعد مقتل أخيه المظفر حاجى ، وله من العمر ثلاث عشرة سنة ، وقد حدث فى العام الثانى لتوليه الحكم طاعون مخيف ، أخذ البشر والسائمة ، وتسرب إلى مكة المكرمة ، ومما قاله الصفدى :

لمّـا افتـرسْتَ صِحـابى ... يا عامَ تِسْـعَ أربعينـا[2]
مـا كنْتَ واللهِ تسـعًا ... بلْ كنتَ سبعًا يقينـا[3]

تآمر الأمراء كعادتهم على الناصر حسن ، وخلعوه ووضعوا أخاه صالحاً مكانه سنة ٧٥٢ هـ ، لكنه عاد ثانية لسلطنته بعد خلع أخيه ، وقد هنأه ابن نباتة قائلا :

عُدْ على النصرِ والسعادةِ يا مَنْ ... رفعَ اللهُ فى السـلاطينِ شانَهْ
أنتَ سهمٌ للهِ ما كانَ يُخلى ... منه أوطانَ مِصْرَ وهْىَ كِنانَهْ[4]

أحسن هذا السلطان — كما سنرى — لابن نباتة كل الإحسان ، واستدعاه

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧٨ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ١٨٩ .
(٢) فى الأصل : « ياعام تسع وأربعينا » والصواب ما أثبت ، وذلك لحذف تنوين (تسع) ، وحذف الواو ، ووصل همزة القطع ليستقيم الوزن .
(٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٠ .
(٤) الديوان ص ٥٣١ ، وبدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٣ .

لمصر قبيل مقتله بعام واحد ، وذلك سنة ٧٦١ هـ .

نكتفى بهذا القدر من ذكر سلاطين المماليك الذين كانت لهم علاقة بحياة أديبنا ابن نباتة ، والذين يجلّون لنا بعض أحداث عصر هام من العصور الإسلامية .

القسم الثالث
الوحدة العربية الكبرى

لم تكن الوحدة العربية التى انطلقت فى هذا العصر حديثة فى وجودها وتكوينها ، ولو تصفحنا التاريخ العربى منذ أقدم عصوره ، لرأينا تباشير فجرها قد أفصحت من أفقها البعيد ؛ وقد يطول بنا البحث لو حاولنا استعراضها بالتفصيل ، ونكتفى بالقول هنا إن العباسيين فطنوا لوحدة البلاد الواقعة غرب الأنبار ، فكانوا يولون ولى العهد أميراً على هذه البلاد ، ويلقبونه والى الغرب ، وأصبح ذلك تقليداً معروفاً عندهم . وتشتد أواصر الوحدة العربية بعد ذلك على يد الطولونيين الذين عمروا أرض الكنانة ، وحفظوا لمصر كيانها بعد أن خلصوها من جور الولاة العباسيين ، وحاولوا أن يقلدوا سادتهم من الخلفاء فى سامراء . لكن عهد الطولونيين لم يدم طويلا ، إذ عادت مصر إلى حكم العباسيين ، ولم تلبث إلا قليلا حتى شهدت حكم الإخشيديين ، وحاول هؤلاء بدورهم أن يحفظوا وحدة البلاد العربية بالذود عن حياضها وتحريرها من أطماع الغزاة القادمين من الشرق والغرب ؛ وهكذا بدأت هذه البلاد تتحرر ، فشملت الوحدة العربية فى عصرهم البلاد من أقصى الشرق فى العراق إلى أقصى الشمال حتى بلاد الروم إلى أقصى الجنوب حتى بلاد النوبة ، وقد عبر المتنبى عن ذلك خير تعبير فى معرض مدح كافور الإخشيدى قائلا :

يُدَبِّرُ الملكَ مِنْ مصر إلى عَدَنٍ إلى العراقِ فَأَرض الروم فالنّوبِ[1]

(١) ديوان المتنبى ، ج ١ ص ١٧١ .

نلاحظ أن الأخطار المحيقة بالعالم العربى كانت عاملا هامًّا من عوامل الوحدة القومية . واستطاعت هذه الوحدة أن تصد جحافل الغزاة من كل حدب وصوب فى الشرق والغرب بعد أن توحدت الصفوف ، وأزيلت عوامل التفرقة والانقسام .

هكذا بدأت فكرة الوحدة للعربية إذ كانت معرقة فى القدم ، لكنها لم تلبث أن عدت عليها العوادى . فأوهنتها وما لبثت أن ظهرت من جديد حفظاً لكيانها ، فوقفت صامدة كالصخرة الصماء أمام الفرنجة والتتار . يؤيد ما نذهب إليه رأى أستاذى الكريم الدكتور محمد كامل حسين الذى يعتقد أن هذه الفكرة أشرقت فى عهد نور الدين الزنكى عند ما شرع يوحد الجيوش الإسلامية تحت راية عربية واحدة[١] ، لكنها — فى الحقيقة — لم تتحقق إلا على يد البطل الأيوبى صلاح الدين حين ملك مصر والشام والجزيرة وغيرها[٢] ، وجعلها دولة واحدة بعد أن طهر أرضها من رجس الغاصبين .

اتسعت هذه الدولة فى عهد أخيه الملك العادل ، وأصبحت ممتدة من أقصى بلاد مصر والشام واليمن والجزيرة إلى همذان كلها[٣].

شعر الفرنجة بالخطر ، وخاف التتار من قيام هذه الوحدة الكبرى ، وحاولوا تحطيمها بكل سبيل ، وشاء الله أن يتم نوره ، فيمضى الأيوبيون ، ويخلفهم سلاطين المماليك الذين استطاعوا بالرغم من كل اختلافاتهم أن يجددوا الفتوح ويقهروا الأعداء فى معظم المعارك التى نازلوهم فيها ، ولولاهم لغدت هذه البلاد كلها تحت رحمة المغيرين من فرنجة وتتار .

لقد أوقفوا زحف التتار لأول مرة فى تاريخهم — كما رأينا — بعد معركة عين جالوت على يد السلطان المملوكى سيف الدين قطز .

اتسع نطاق هذه الدولة العربية اتساعاً منقطع النظير فى عهد السلطان الظاهر بيبرس ، وخيم الأمن على شتى بقاعها ، ويروى لنا المقريزى خلال ترجمته

(١) دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين ص ٨٦ ، ص ٨٧ .
(٢) الكامل فى التاريخ جـ ١٢ ص ٣٧ .
(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٧٩ .

المستفيضة للظاهر أنه كان يركب للعب الكرة فى الأسبوع يومين بمصر ويوماً بدمشق ، وفى ذلك يقول سيف الدين المهمندار من أبيات يمدحه بها :

يومًا بمصرَ ويومًا بالحجازِ وبا شامِ يومًا ، ويومًا فى قُرى حلبِ[1]

يدلنا على اتساعها أيضاً ما جاء فى تقليد الخليفة العباسى للظاهر : « وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجدا »[2].

لم تقف هذه الدولة العربية الكبرى عند هذا الحد ، بل تجدد فى عهد السلطان نفسه كثير من الفتوحات فشملت بلاد برقة والنوبة[3] .

كانت القاهرة عاصمة كل هذه الأقاليم ، تنطلق منها الجيوش لتحررها ، وتنير أمامها سبيل المجد والحرية والخلود .

---

(١) السلوك ج ١ ص ٦٣٧ ، ٦٣٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٦٣٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٦٢٨ ..

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

نحاول أن نحدد مجال البحث فى الحياة الاجتماعية قبل أن نبدأ فى تبيان مظاهرها بمختلف صورها واتجاهاتها ومناحيها ، لأن دراستها تتطلب منا الإفاضة فى توضيحها ، لكن هذا ليس بالمستطاع مادامت طبيعة بحثنا الأدبى تتطلب منا أن نعرضها عرضاً شاملا يجلّى لنا حياة ابن نباتة فى هذا المجتمع الذى نحن بصدده الآن .

نقف مع علماء الاجتماع ، ونحدد مفهومهم للحياة الاجتماعية وحدّهم لها ، كيما نستطيع من خلالها الوقوف عند كل مظهر من مظاهرها العامة . ويجمع هؤلاء العلماء على أن المقصود بها جميع نواحى النشاط الإنسانى من العمل والدين والتعليم والاقتصاد والأسرة والأعياد والأفراح واللهو والمآتم والأحزان وشتى الأمراض الاجتماعية[1] .

لن نستطيع الإلمام بدراسة كل هذه المظاهر ، وسنكتفى بالتحدث عن الطبقات الاجتماعية فى هذا العصر ، ووصف الوضع الاقتصادى العام ، وذكر النشاط الدينى ، ثم نختم حديثنا عن المظهر الخلقى ، وما يتعلق بذلك من أمراض اجتماعية وخلقية متفشية بين الناس عامة .

القسم الأول
الطبقات الاجتماعية

ليس النظام الطبقى السائد فى هذا العصر بالشئ الجديد ، إذ أن أصوله الأولى صاعدة مع التاريخ القديم ومنحدرة مع تطوره المستديم . ومن العسير

(١) دراسات فى الحياة الاجتماعية ص ٣ .

على الباحث أن يفسر الكثير من هذه المظاهر الاجتماعية .

اختلف العلماء قديماً وحديثاً فى تصنيف طبقات المجتمع ، فمنهم من لا يرى فيه غير طبقتين كما هو الحال عند ابن خلدون ، وقد أشار إليهما فى مقدمته المشهورة ، فذكر أن ملك مصر فى عصر المماليك إنما هو سلطان ورعية ، فالسلطان من له رعية ، والرعية من لها سلطان[١] .

ذهب هذا المذهب بعض المؤرخين المحدثين مثل لين برل(Lane Paul) فأشار إلى طبقتين كبيرتين : أولاهما طبقة المماليك ، وهى أقلية عسكرية ممتازة ، وثانيتهما : طبقة تمثل سائر فئات الشعب ، وهى محرومة من كل نفوذ وبعيدة عن الحكم ، وليس بيدها غير بعض الوظائف الدينية والقضائية، وعليها العمل فى فلاحة الأرض ودفع الضرائب الباهظة[٢].

ومنهم من قسم هذا المجتمع إلى عدة طبقات ، نشير بشكل خاص إلى المقريزى الذى صنف فى المجتمع سبع فئات ، أولاها : أهل الدولة من المماليك ، وثانيتها : أهل اليسار من التجار ، وثالثتها : متوسطو الحال من السوقة والباعة ، ورابعها : أهل الفلح ، وخامستها : الفقهاء وطلاب العلم ، وسادستها : أرباب الصنائع وأصحاب المهن ، وآخرها ذوو الحاجة والمسكنة[٣].

أما معاصر المقريزى بيلوتى الكريتى (Pilote de Crète) ، فإنه قسم المجتمع إلى ثلاث طبقات : طبقة المماليك وطبقة الشعب وطبقة الأعراب ، وقد أهمل المقريزى هذه الطبقة الأخيرة[٤].

يحسن بنا أن نأخذ بتقسيم المقريزى ، على أن نضيف إليه طبقتين أهملهما المؤلف المذكور ، على الرغم من أنهما تؤلفان طبقتين هامتين ، كان لهما أكبر الأثر فى الحياة العامة ، وهما طبقة الأعراب التى أشار إليها بيلوتى ، وطبقة أهل الذمة من أقباط ويهود، وقد أسهموا إسهاماً فعالا فى شتى نواحى الحياة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٨ .
(٢) دراسات فى الحياة الاجتماعية ص ١٠ .
(٣) إغاثة الأمة فى كشف الغمة ص ٧٢ – ٧٥ .
(٤) دراسات فى الحياة الاجتماعية ص ١٠ .

لن أتحدث طويلا عن كل طبقة ، لكننى سأدرس الطبقات التسع ضمن خمس طبقات عامة كبرى .

السلطة الحاكمة

ذكرنا أن الأيوبيين حكموا جزءاً كبيراً من العالم العربى خلال فترة قصيرة من عمر الزمن ، وقلنا : إن المؤرخين قد اختلفوا فى نسبهم ، فبعضهم يقول : إنهم عرب أمويّون[١]، لكن أغلبهم يؤكد أنهم أكراد رواذية من بلدة (دوين) فى أذربيجان[٢] وهو الرأى الصحيح على الأرجح .

حكم الأيوبيون البلاد ، ولم يكونوا فى يوم من الأيام من المماليك الأرقاء ، بل كانوا أحراراً ، يشدون أزرهم بالمماليك لدعم حكمهم ، لكن هؤلاء استطاعوا أن يغدروا بهم ويديلوا دولتهم ، ويسلبوهم الملك .

ينحدر الحكام الجدد (المماليك) من أصول مختلفة منهم الأتراك والجركس والروم والأرمن وغيرهم ، فالسلطان قطز هو ابن أخت ملك« مانجو بردى » الذى قضت عليه جيوش جنكيز خان[٣] ، والسلطان قلاوون قفجاق تركى من قبيلة برج أغلى ببلاد القفجاق ، والسلطان كتبغا مغولى الأصل جاء أسيراً إلى مصر بعد موقعة حمص سنة ٦٥٨ هـ ، والسلطان لاجين أصله من البلاد الواقعة على شاطئ بحر البلطيق .

تلك هى أصول بعض سلاطينهم ، فكيف حال أتباعهم من المماليك الأرقاء . لقد كان السلطان يشترى عدداً منهم ، ويسلمهم إلى الطواشى المشرف على طبقة جنسهم[٤] ، ويصبح فى عداد الذين يؤهلون لخدمة مولاهم .

ينال المملوك ثقافة خاصة منذ نعومة أظفاره ، فيربى تربية دينية على يد

---

(١) مفرج الكروب جـ ١ ص ٤ ، والنجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٣ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ١٢ ، ومفرج الكروب جـ ١ ص ٢ .
(٣) مجلة كلية الآداب ، المجلد الرابع جـ ١ (مايو ١٩٣٦ م) .
(٤) الخطط جـ ٢ ص ٢١٨ .

فقيه خاص يعلمه القرآن والحديث ، ويشرح له أحكام الإسلام ، ويزوّده بآداب الشريعة ، وعندما يبلغ مرحلة البلوغ يُربّى تربية عسكرية عنيفة ، تشمل ركوب الخيل والفروسية والرمى عند سفح جبل المقطم ، وعندما يبلغ أشده ، وتبدأ مواهبه الخاصة بالظهور يسلك فى عداد الجنود المحاربين[١].

إن المؤهلات الشخصية هى التى تهيئ صاحبها كيما يتدرج فى معارج الرقى ، فيصل إلى مرتبة الأمراء . أما الوظائف التى يليها هؤلاء فكثيرة منها نيابة السلطنة أو الأتابكية ، أو غيرها من المناصب التى خص بها الأمراء المماليك دون غيرهم ، وإذا ما ساعدت الظروف أحدهم وثب على السلطان فقتله أوخلعه وحلّ محلّه ، استبد الأمراء بأمور السلطان فى كثير من الأحيان ، وكانوا مصدر السلطة ، وهم الطبقة الحاكمة التى تهيمن على شئون الملك ، والدلالة على ذلك ما مر معنا خلال عرضنا المفصل للحياة السياسية من أن الناصر محمداً فضل التخلى عن السلطنة والذهاب إلى الكرك عندما شعر أن بيبرس وسلار يتحكمان بأموره ويتدخلان فى شئونه ، ومن الطريف أن نذكر أن السلطان المذكور طلب بعض الحلوى والإوز ، فرد النائب سلار طلبه وقال لحامله على الفور : « وإيش يعمل السلطان بالإوز ، هو الأكل عشرون مرة فى النهار»[٢].

تدلنا هذه الطرفة على مبلغ تحكم الأمراء بأمور السلطان وتدخلهم حتى بأمر طعامه وشرابه ؛ وهكذا ساءت أمور المماليك ، فتخلوا عن كثير من صفاتهم الحربية ، وانغمسوا فى الفتن والمفاسد ، وتمادوا فى الاعتداء على الناس ، وقد صور ابن تغرى بردى — وهو من المماليك — سوء حالهم ، فقال : « ليس لهم صناعة إلا نهب البضاعة ، يتقوون على الضعيف ويشرهون حتى فى الرغيف ، جهادهم الإخراق بالرئيس ، وغزوهم فى التبن والدريس »[٣] .

هذا لسان شاهد من أهلهم ، وهذا لسان شاهد آخر من غير أهلهم ، وهو

---

(١) السلوك ج ٢ ص ٥٢٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٥ .
(٣) المصدر السابق ج ٧ ص ٣٢٩ .

المقريزى ، فقد صور حالهم بعد أن تخلوا عن طباعهم الأولى ، وقال : « ليس فيهم إلاّ من هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب »[١] .

هكذا كانت الطبقة الحاكمة فى هذا العصر ، وهكذا صارت ، وبالرغم من كل ذلك فقد دافعوا عن البلاد بشجاعة منقطعة النظير ، ووقفوا برباطة جأش أمام خطرين داهمين ، فى الشرق والغرب ، وانتصروا فى جل معاركهم ، وكفاهم فخراً أنهم خضدوا شوكة التتار الذين عرفوا هزيمتهم المنكرة على أيديهم ، ولا ننسى أن التربية الدينية القويمة التى تلقوها عن الفقهاء كانت من العوامل الرئيسية فى هذه الانتصارات الكبرى .

أئمة الدين

لقبهم المؤرخون بأهل العمامة ، وهم فئة متميزة من عامة الشعب ، فقهت أمور الدين ، ودرست أحكامه ، ونالت — بالإضافة إلى ذلك — حظاً وافراً من العلم والثقافة ، فكسبت احترام المماليك الأغراب ، لأنهم لم يعرفوا الإسلام إلاّ على أيديهم ، وهم فى بركتهم يعيشون[٢] .

كان المماليك — كما ذكرنا — رجال حرب وسيف ، فهم يحتاجون لأيدى العلماء من رجال الدين ، يشدون بهم أزرهم ليصرفوا شئونهم ويدبروا أمورهم ، وقد نالت هذه الطبقة بعض امتيازات الطبقة الحاكمة ، فسمح لهم بركوب الجياد أسوة بهم .

نستطيع أن نقسم هذه الطبقة إلى فئتين : أولاهما وليت الوظائف العامة التى لا يؤبه لها كأمانة السر وكتابة الإنشاء ، والإشراف على سائر الدواوين ، نشير من هؤلاء إلى شمس الدين والد ابن نباتة ، إذ كان شاهداً فى ديوان السلطان بيبرس . وثانيتهما قد احتفظت بمكانتها ، وعكفت على عبادتها ، وشغلت وظائف التدريس والقضاء والدين ، لكن كثيراً منهم كان يعرض عن تولى

---

(١) الخطط جـ ٣ ص ٣٤٨ .

(٢) السلوك جـ ٣ ص ٣٨٣ .

القضاء . ولعلهم كانوا يعرضون لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قاض فى الجنة وقاضيان فى النار » . أما من تولى منهم القضاء فكان يشترط على السلطان بعض الشروط ، وكثيراً ما كانوا يصطدمون بالأمراء الحاكمين لتمسكهم بأهداب الحق وإبائهم السير على هواهم ووفق رغائبهم ، وكثيراً ما كانوا يقفون أمامهم إذا رأوا منهم خروجاً على مصلحة المسلمين ، وتعارضاً مع الدين الحنيف ، وتجاوزاً عن أحكامه .

يُروى عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه ترك الدعاء على المنبر لسلطان دمشق الملك الصالح إسماعيل أحد الملوك الأيوبيين ، لأنه استعان بالصليبيين على خصومه من أهله الأقربين . وسمح لهم بدخول دمشق لابتياع السلاح ، واتفق معهم على أن يسلمهم مدينتى صيدا والشقيف وغيرهما من حصون المسلمين .

سجن الشيخ عز الدين لجهره بمعارضة السلطان ، وإهماله الدعاء له على المنبر ، لكنه أطلق سراحه بعد فترة وجيزة خوفاً من سخط الناس ونقمتهم عليه ، فترك دمشق ، وتوجه إلى القاهرة ، فأكرمه سلطانها نجم الدين الأيوبى وأحسن وفادته .

كان الشيخ عز الدين حانقاً على تولى المماليك السلطة . وقد وقف من الظاهر بيبرس ومن الأمراء موقفاً جباراً يسجله له التاريخ بكل فخر ، ويدل على ازدرائه لهم وتهاونه بأمرهم .

جمع الظاهر بيبرس الأمراء والعلماء ليأخذ البيعة بالسلطان ، لكن الشيخ عز الدين امتنع عن مبايعته ، وأعلن أنه لم يثبت لديه عتقُ بيبرس ، وقال له : « يا ركن الدين ، أنا أعرفك مملوك البندقدار » لم يجد الظاهر بيبرس بدًّا من إحضار الشهود الذين شهدوا له أنه خرج من ملك البندقدار . وأنه أصبح بعد ذلك حرًّا ، وحينئذ بايعه الشيخ بالسلطان .

لم تقف جرأته عند هذا الحد فى تحدى السلطان ، بل بدأ بالأمراء المماليك أنفسهم ، وتصدّى لبيعهم كما باع من قبل مولاهم الظاهر ، لأنه —

كما يرى — لم تثبت لديه الحجة أنهم أحرار ، وأعلن أن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، وصمم على ألا يصحح لهم بيعاً ولا شراء ولا نكاحاً، فعظم عليهم الأمر ، وهالهم هذا الخطب، فاضطربت أمورهم ، وتعطلت مصالحهم وتداعوا للاجتماع لدى نائب السلطنة . اجتمع أمراؤهم ، وبعثوا للشيخ بوفودهم ، يرجونه أن يخلى سبيلهم ، لكنه رفض طلبهم ، وقال لهم: « نعقد لكم مجلساً وننادى عليكم لبيت مال المسلمين»[1] .

ساءهم إصرار الشيخ على بيعهم ، فرفعوا ظلامتهم للسلطان ، لكنه رفض أمره غير هياب ولا وجل ، فلقد بدأ به فحرره ، ومن واجبه أن يحرر أتباعه ، فرفض شفاعة النائب ثانية .

وقد أثار ذلك غضبه ، وقال : « كيف ينادى علينا هذا الشيخ ويبيعنا ، ونحن ملوك الأرض ؟ ! والله لأضربنه بسيفى هذا ».

ركب سلار النائب بنفسه ، وسار مع جماعته المماليك ، وقرع باب بيت الشيخ ، والسيف مسلول فى يده . خرج له ابن الشيخ ، وسرعان ما أخبر والده بما رآه فقال له : « يا ولدى أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله » . خرج الشيخ يقابل الموت ، فما رفع بصره الحديد على النائب حتى جمدت يده ، وهوى منها السيف ، وارتعدت فرائصه فرقاً ، وأخذ يجهش بالبكاء أمام أتباعه .

طلب من الشيخ أن يعفو عنه وسأله أن يدعو له ، وقال له بعد ذلك : (إيش تعمل) ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم .

— فيم تصرف ثمننا ؟

— فى مصالح المسلمين .

— من يقبضه ؟

— أنا .

انتصرت إرادة الحق وتم للشيخ الجليل ما أراده ، ونادى على الأمراء

---

(١) عصر سلاطين المماليك جـ ٢، ص ١٨٢ ، ورفع الإصر عن قضاة مصر (مخطوط) ورقة ١٦٨ — ١٦٩ ، والمنهل الصافى (مخطوط) جـ٢ ، ورقة ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

المماليك واحداً واحداً ، وغالى فى ثمنهم ، ولم يبعهم إلاّ بالثمن الوافى ، فقبض ما تحصل لديه من بيعهم ، وصرفه فى وجوه الخير وفى مصالح المسلمين [١].

قضى هذا الشيخ الجليل نحبه ، وانزاح بموته عن صدور المماليك وقر ثقيل ، إذ روى عن الظاهر أنه شاهد نعشه محمولا على الأكتاف ، ومن خلفه المشيعون الذين لا يحصرهم عدّ ، فالتفت إلى بعض خواصه ، وأسر فى أذنهم قائلا : « الآن استقر أمرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس ، اخرجوا عليه لانتزع الملك منى »[٢] .

ليس بغريب أن يدعوه تلميذه تقى الدين بن دقيق العيد بسلطان العلماء محرر الأمراء والسلاطين من ربقة الرق والعبودية ، وليس بغريب أن يصبح تلميذه هذا صلباً فى الحق ، لا تلين له قناة ولا يغمز له جانب مما حمل سلاطين المماليك على احترامه وتوقيره .

يروى السيوطى أن السلطان لاجين لقيه مرة ، فقام وقبل يده ، فلم يزد على قوله : « أرجوها لك بين يدى الله تعالى »[٣].

رفض القضاة فى كثير من الأحيان — كما ذكرنا — ولاية القضاة ، ويروى عن ابن دقيق العيد أنه دُعِى لتولى هذا المنصب فى عهد السلطان كتبغا ، فرفض قبول هذا المنصب حتى قالوا له : إن لم تفعل ولوا فلاناً وفلاناً لرجلين لا يصلحان للقضاء [٤] . كما رفض بعضهم تناول أجر على ذلك نخص بالذكر منهم القاضى عبد الرحيم البارزى ، فقد أنف أن يتناول أجراً من منصبه الذى وليه . احتفظ العلماء بمكانتهم الدينية واستطاعوا بما أوتوا من قوة أن يقفوا فى طريق الحق ، وكانوا لا يخافون حتى من الطعن فى شهادة السلطان نفسه أو رفض الشهادة رفضاً باتّاً ،من ذلك ما روى عن السلطان الكامل أن القاضى ابن عين الدولة رفض شهادة سلطانه لأنه يعرف ولعه بجارية اسمها عجيبة[٥] .

أدت هذه الطبقة من رجال الدين خدمة كبرى للدولة ، لأنها كانت بحق تدافع عن مصالح الناس ، وهى من الشعب ، وتعمل من أجله .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٨ . (٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٦

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٠١ . (٤) المصدر السابق .

(٥) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٧ .

عامة الشعب

حاولت أن أنظم فى طبقة الشعب مختلف فئات الفلاحين والتجار والصناع وسائر العوام من رعاع ومتسولين وحرافيش ، لأن الطبقة الحاكمة تحتقرهم وتزدريهم ، وتنعتهم بنعوت خاصة بهم .

يؤلف الفلاحون السواد الأعظم من عامة الشعب ، ومهنة الفلاحة محتقرة ، لأن الفلاح يعتبر قنّاً ملحقاً بالأرض ، يورث مع الإقطاع الذى يعمل فيه لدى سيده .

ساد نظام الإقطاع فى العهد الأيوبى ، واستمر قائماً فى عصر المماليك ، وقد صرح المقريزى فى خططه بذلك ، وأشار إلى أن الفاطميين لم يسلكوا هذا السبيل من قبل فقال : « لم يكن فى الدولة الفاطمية ولا فيما مضى قبلها من دول أمراء مصر لعساكر البلاد إقطاعات بمعنى ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات معروفة لمن شاء من الأمراء والأجناد والوجوه ، وأهل النواحى من العرب والقبط وغيرهم لا يعرف هذه الأبذة التى يقال لها اليوم الفلاحة ويسمى المزارع المقيم بالبلد فلاحاً قراراً ، فيصير عبداً قنّاً لمن أقطع تلك الناحية إلا أنه لا يرجو أن يباع ولا أن يعتق ، بل قن ما بقى ومن ولد له كذلك »[1] .

ليس هذا القول بحاجة لبيان ففيه الغناء ، للدلالة على هؤلاء المستضعفين فى الأرض كما شاء ابن خلدون أن يدعوهم فى مقدمته ، إذ ذكر أن الفلاحة من معاش المستضعفين ، ويختص منتحلها بالذلة والمسكنة[2] ، فإذا أراد أحدهم أن يشتم الآخر نعته بكلمة فلاح ، وبذلك تطورت هذه اللفظة وأصبحت خاصة بالشتم والسباب .

---

(١) الخطط جـ ١ ص ١٣٨ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٤ .

كما أن سادتهم الأمراء لم يكونوا يسمحون لهم بالتمتع حتى بأبسط مبادئ الحرية ، فقد روى المقريزى أن أحداً من الفلاحين لم يكن يجرؤ فى أيامه أن يلبس مئزراً أسود ، ولا يركب فرساً ، ولا يتقلد سيفاً ، ولا يحمل عصا مجلّبة بحديد.

أما الغلال التى سقاها الفلاح بعرق جبينه فمعظمها يذهب لأهل الدولة وأولى الجاه والسلطان ، وقد أدى هذا الأمر لخراب القرى وتشرد الفلاحين فى المدن ، يتسكعون فى شوارع القاهرة وأزقتها ، ولا يعرفون لهم مأوى ، بل يتعودون حياة الحرافيش وغيرهم من المتسولين المعوزين .

* * *

أما فئة التجار فكانت أحسن حالا من سائر فئات الشعب ، وقد قرّب السلاطين أثرياءهم ليمدوهم بالمال حين الحاجة واتخذوا منهم نداماهم وأصحابهم . وأنعموا على بعضهم بأمر طبلخانات ، لكن سائر التجار وهم الغالبية العظمى كانوا يتعاملون كأبناء الشعب عامة ، إذ كانت الضرائب تفرض عليهم بكثرة ، وكان الجباة لا يتورعون عن استعمال العنف فى جمعها . يضاف إلى ذلك ما يحدث من مصادرة بين الفينة والفينة ، فيصادر نصف هذه الأموال أو ثلثها لتجهيز الجيوش المحاربة ، وكثيراً ما كان العلماء يحاولون دون فرضها ، ولا يسمحون إلا بأخذ المعقول للجهاد فى سبيل الله .

نضيف إلى الفلاحين والتجار فئة ثالثة من عامة الشعب ، وهم أرباب الصناعات والمهن ، وكان هؤلاء يشكّلون فيما بينهم نقابات خاصة ، تضم الأعضاء العاملين ، ولهم شيخهم الخاص ، يدافع عن مصالح الأفراد الذين يمثلهم ، ويقوم بتهيئة الاحتفالات الخاصة عند قبول عضو جديد بينهم .

نلحق بهذه الطبقة كثيراً من الأفراد الذين كانوا يدعون العوام[1] وقد ضاقت أمام هؤلاء سبل الرزق ، فلجئوا إلى أخس الصناعات ، يعيشون بها فى ضيق وفقر وضنك ، وكثيراً ما يقضون سحائب لياليهم فى الطرقات ، لأنهم لا يملكون منازل تأويهم ، نخص بالذكر منهم البلاصية والزعرة والمشاعلية والحرافيش .

---

(١) دراسات فى الحياة الاجتماعية ص ٢٦ ، ٢٧ .

قبائل الأعراب

نقف أخيراً عند طبقة الأعراب ، وقد أفردناها فى طبقة مستقلة ، لأن نمط حياتها يختلف عما نعرفه لدى الشعب عامة .

كانت منتشرة فى معظم أنحاء البلاد ، وكانت مصدر خطر كبير على المدن والقرى والأرياف ، يشنون الغارات المفاجئة ويُخلّون بالأمن ، ويفتكون بالسكان الآمنين ، وينتهزون أوقات الفيضان لشن غاراتهم ، ويتعرضون فى بعض الأحيان لحجاج بيت الله الحرام ، بل كانوا لا يتورعون عن الغزو حتى فى أوقات العدوان الخارجى .

ثار العربان فى كثير من الأحيان لأنهم لم يكونوا راضين عن حكم سلاطين المماليك الذين هم بنظرهم غرباء عن البلاد . ويذكر لنا المقريزى أنهم ثاروا فى بلاد الصعيد وأرض بحرى سنة ٦٥١ هـ ، وقطعوا الطرقات ، وأوقفوا القوافل ، وخاف الناس شرهم ، فامتنعوا عن السفر ، وصرح أمير الثائرين « حصن الدين ثعلب الجعدى » قائلا : « نحن أصحاب البلاد ، وأنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد » .

إنهم يأنفون من خدمة الترك ، وهم عبيد خوارج ، وكتبوا للناصر صاحب دمشق يستحثونه على القدوم إلى مصر .

تجمع حول الأمير حصن الدين ثعلب أكثر من اثنى عشر ألف فارس ، وتجاوز الرجالة الإحصاء لكثرتهم ، وقد توافدوا من أقصى الصعيد ، وأطراف بلاد البحيرة والفيوم والجيزة ، واجتمعوا حول الأمير ثعلب بناحية « دهروط صربان » وحلفوا له كلهم .

جهز لهم السلطان المعز أيبك الأمير « أقطاى الجمدار » ، والأمير أقطاى المستعرب فى خمسة آلاف فارس . التحم الفريقان فى معركة ضارية دامت من بكرة النهار إلى الظهر ، فر على إثرها ثعلب . وطلب من الملك المعز

الأمان ، فأمنه وحضر مع جماعته ، وكانت عدتهم ألفى فارس وستمائة راجل ، فقبض عليهم ، ونصبت لهم الأخشاب ، من بلبيس إلى القاهرة ، فشنقوا جميعاً أما الأمير ثعلب فقد نفى إلى ثغر الإسكندرية .

لم يكن السلاطين يستخدمون معهم العنف فى الغالب كما فعل المعز ، وإنما كانوا يحاولون استرضاءهم وتأليف قلوب مشايخهم حولهم وإجزال المال عليهم ليدفعوا بذلك شرهم ، ويأمنوا غضبهم[١] .

أهل الذمة

هم أهل الكتاب من نصارى ويهود ولكل منهما فئاته الخاصة ، وقد أدخل صلاح الدين الأيوبى كثيراً من الأقباط فى خدمته ، وسار خلفاؤه من بعده فى السبيل نفسه ، لكن سلاطين المماليك أخذوا يضطهدونهم فى بعض الأحيان ولعل الحروب الصليبية كانت من بعض العوامل التى تدفع الرعاع إلى التعرض لهم ، يضاف إلى ذلك رغبة المماليك فى أخذ ما يملكون لأنهم عرفوا بالثراء ، كما أنهم حرموا من العمل فى الدواوين ، فصرفوا عنها بمرسوم السلطان الناصر قلاوون الذى أمر ألا يُستخدم واحد من أهل الذمة[٢] سنة ٦٨٩ هـ .

والطريف لدى سلاطين المماليك أنهم أمروهم بتصغير عمائمهم ، فلاتتجاوز السبعة أذرع أو العشرة ، وخصت كل طائفة من أهل الذمة بلون خاص ، فعمائم النصارى الأقباط زرقاء ، وعمائم اليهود صفراء ، وعمائم السامريين حمراء ، يضاف إلى ذلك أنهم منعوا من ركوب الخيل والبغال ، ومن قرع النواقيس وغير ذلك[٣] .

أما سبب ما حل بهم فيروى ابن إياس أن أحد المغاربة جلس بباب القلعة ، فدخل عليه بعض كتاب الديوان بعمائمهم البيض ، فأكثر المغربى من توقيرهم

---

(١) السلوك جـ ١ ص ٣٨٦ – ٣٨٨ .

(٢) السلوك جـ ١ ص ٧٥٣ .

(٣) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٣ ، والسلوك جـ ١ ص ٩١١ .

واحترامهم ظنًّا منه أنهم من المسلمين . وعندما علم أنهم من الأقباط دخل على الناصر محمد ، وارتأى عليه تغيير زيهم ليتميزوا به من المسلمين . وقد أنشد الشيخ شمس الدين الطيبي يصف عمائم أهل الذمة قائلا :

تَعَجَّبُوا للنَّصَارى واليهودِ معًا ... والسامريين لمّا عُمِّموا الخِرَقَا
كأنَّما باتَ بالأَصباغِ منسهلًا ... نسرُ السماءِ فأَضحىَ فوقَهم ذَرِقَا[1][2]

وأنشد فى هذه المناسبة أيضاً الشيخ علاء الدين الوداعى قائلا :

لقدْ ألزموا الكفارَ شاشاتِ ذِلَّةٍ ... تزيدُهُمُ مِنْ لعنةِ اللهِ تشويشَا
فقلتُ لهم : ما ألبسوكمْ عمائماً ... ولكنهمْ قدْ ألبسوكمْ براطيشَا[3]

أصدر كذلك السلطان الصالح أمراً سنة ٧٥٤ هـ ، ورسم ألاّ يستعان بيهودى أو نصرانى فى ديوان ، وأن تكون عمائمهم عشرة أذرع لا غير ، ولا يركبون مع مكّارى مسلم ، وإذا مروا بالمسلمين ترجلوا ، ولا يدخلون الحمّام إلا والصليب معلق فى أعناقهم[4].

حاول أهل الذمة سنة ٧٠٩ هـ أن يعودوا لعمائمهم البيض أسوة بسائر المسلمين ، وقد تبنّى الوزير ابن الجليل أمرهم ، وتكلم فى شأنهم ، وذكر للسلطان أنهم التزموا للديوان بسبعمائة ألف فى كل سنة زيادة على الجالية . قنع أهل المجلس بالأمر ، لكن الشيخ ابن تيمية عارض ذلك ، وبقى الأمر على حاله[5].

لم يقتصر هذا الأمر على الرجال ، بل شمل النساء ، فأصدر السلطان الناصر حسن سنة ٧٥٧ هـ أمراً رسم فيه أن يكون إزار النصرانية أزرق ، وإزار اليهودية

---

(١) ذرق الطائر : رمى بسلحه .

(٢) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٩ ، وبدائع الزهور جـ ١ ص ١٤٣ ، وأعيان العصر (مخطوط) جـ ٦ ، ق ٢ ، و ٢٣٥ .

(٣) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٩ ، وأعيان العصر (مخطوط) جـ ٦ ، ق ٢ ، ٢٣٥ .

(٤) بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٠١ .

(٥) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٥٣ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٦٠ .

أصفر ، وإزار السامرية أحمر[١].

مهما يكن من أمر فإن هذه الاضطهادات زوابع تحدث بين حين وآخر ، فتأتى على مبانيهم وكنائسهم بالحرق والتخريب. من ذلك ما حدث سنة ٧٢١هـ إذ هدمت عدة كنائس . كانت هذه الأمور تخلق رد فعل لدى أهل الذمة ، فيقابلون الإساءة بمثلها ، ويقومون بحرق بعض الأماكن المقدسة خفية[٢].

أسهم أهل الذمة فى خدمة الدولة كسائر أفراد الشعب ، ولم تمنعهم تلك الأمور التى أتينا على ذكرها من الاشتراك مع المسلمين فى أعيادهم ، بل إن المسلمين أنفسهم كانوا كثيراً ما يشاركونهم فى أعيادهم واحتفالاتهم الدينية .

كما أسلم كثير من أهل الذمة رغبة فى تولى المناصب العليا فى الدولة ، وسجل لنا هذا العصر أسماء كثير من الوزراء الذين أسلموا رغبة فى التمتع بما للمسلم من حقوق وما له من حريات . كما أسلم بعضهم الآخر رهبة خلال فترات الاضطهادات الدينية التى كانت تمر سريعاً ، وتعود الحياة بعدها لمجاريها الطبيعية .

القسم الثانى

الحياة الاقتصادية

يحتل الوضع الاقتصادى مكانة مرموقة فى الحياة الاجتماعية ، وينبغى أن أبين حقيقة هذا الوضع الذى يشمل الناس جميعاً ، لأعلل الأسباب الرئيسية التى حدت بابن نباتة وبغيره من الأدباء والشعراء إلى مغادرة أرض الكنانة حاضرة السلطان ، فولوا وجوههم شطر بلاد الشام وغيرها من أقاليم هذه الدولة العربية الكبرى .

---

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٦١ .

(٢) السلوك جـ ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

أجمع المؤرخون على أن الشعب بمختلف فئاته كان يشكو الفقر والحرمان ، ولو شئنا أن نتقصى هذه العوامل التى أدت إلى ذلك لوجدناها متعددة الجوانب وسوف نعرض لها ، وننوه بأهميتها .

الإقطاع

يعتبر الإقطاع الذى أشرنا إليه آنفاً خلال بحثنا عن الطبقات الاجتماعية أحد هذه العوامل الرئيسية ، ولم يكن هذا النظام موجوداً عندما دخل العرب أرض مصر ، كما صار الحال عليه فى هذا العصر ، فاتبع نظام القبالات[١]، وهى الأراضى المقبولة بما عقد عليها من خراج ، فتقسم الأراضى أقساماً ، وتباع علناً ، ويأخذها من شاء من أهل مصر ، ويؤدى ما عليه من خراج فى مواعيده.

بدأ الإقطاع منذ العصر الأيوبى ، واستمر طوال هذا العصر والعصر الذى تلاه ، فأصبح نظاماً قاسياً لا يرحم المستضعفين من أصحاب الأرض ، وإنما كان الفلاح من جملة السوائم الملحقة بالأرض .

نظمت الأراضى فى عصر سلاطين المماليك مرتين ، دعيت فى المرة الأولى بالروك الحسامى ، وفى المرة الثانية بالروك الناصرى . جرى الروك الأول فى عهد المنصور حسام الدين لاجين[٢] . سنة ٦٩٧ هـ ، والروك الثانى فى عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ ، وكلاهما يقتصر على توزيع الإقطاعات على السلطان والأمراء والجنود الغرباء بنسب تختلف قليلا أو كثيراً . أما الشعب وأما المعوزون فلم يكن لهم فى ذلك نصيب ، لأنهم أقنان ملحقون بالأرض ، ولا كرامة لهم عند سادتهم الذين لا يقيمون لهم وزناً ولا يرفعون قدراً .

الضرائب

وتعد الضرائب الفادحة — بالإضافة للإقطاع — عاملا آخر من عوامل فقر الشعب ؛ وقد أشار المقريزى فى خططه إلى هذه الضرائب فى معرض حديثه عن الروك الناصرى ، وعدّد منها ما يزيد على اثنتى عشرة ضريبة ، عدا الضرائب

---

(١) الخطط جـ ١ ص ١٤٥ .

(٢) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٧ ، ١٥٩ ، والخطط جـ ١ ص ١٤١٤ .

الاستثنائية الطارئة التى تقتضيها ظروف البلاد الخارجية .

أشار ابن إياس إلى ذلك ، فذكر أن السلطان المظفر قطز « أخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر وأنثى ديناراً واحداً ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهراً واحداً ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال ، وأخذ على الغيطان والسواقى أجرة شهر ، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة ، فبلغ جملة ما جمعه من المال فى هذه الحركة ستمائة ألف دينار »[1].

أغنانا ابن إياس عن التعليق بعد أن دعا هذه الأعمال بأنها أبواب المظالم ؛ وهذا مثال واحد أوردناه تمثيلا لا إحاطة ، فكيف يكون الحال لو استقصينا المظالم كلها ؟ لو دخلنا أبوابها لوجدنا أشياء كثيرة ترهق كاهل الشعب ، وتجعله يعيش دوماً فى فقر مدقع . لنترك أحد شعراء العصر الشيخ شهاب الدين المؤدب يتحدث بلسان الشعب الشاكى قائلا :

وكيفَ يرومُ الرزقَ فى مصرَ عاقلٌ ... ومنْ دونِهِ الأتراكُ بالسيفِ والترس ؟
وقد جَمَّعتْهُ القِبْطُ. مِنْ كلِّ وِجْهةٍ ... لأنفسهمْ بالربعِ والثمنِ والخمسِ
فللتركِ والسلطانِ ثلثُ خَرَاجِهَا ... وللقبطِ نصفٌ والخلائقُ فى السدسِ

ونتجاوز الإقطاع والضرائب لنتحدث عن الكوارث الطبيعية والمصائب التى حاقت بالبلاد، وقد كثرت فى هذا العصر بشكل مريع لم تشهد له البلاد مثيلا منذ مئات السنين .

الزلازل والطواعين

أما الطبيعة فقد زلزلت زلزالها ، وأخلفت نيلها فى الفيضان والوفاء ، وتفشى الطاعون بين العباد ، فأهلك الحرث والنسل ، وعم نتيجة لذلك القحط والغلاء .

---

(١) بدائع الزهور جـ ١ ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

لم تنقطع إذاً الزلازل طوال هذا العصر ، منها الزلزال الذى حدث فى العصر الأيوبى سنة ٥٩٧ هـ ، فمات من جرائه خلق كثير ، وقد رافقه تفشى وباء الطاعون واستفحال الغلاء[١] . ولعل أهم زلزال وقع فى عصر المماليك سنة ٧٠٢ هـ ، وقد شمل الديار المصرية بأسرها ، واتصلت هزته بدمشق والكرك والشوبك من الديار الشامية . أحدثت هذه الهزة أضراراً بالغة فى ثغر الإسكندرية ، فهدمت سورها وأبراجها ، وطغى الماء الأجاج على معظم أحياء المدينة ، وأغرق بساتينها وحدائقها ، أما فى القاهرة فتهدمت جدران المسجد الحاكمى ، ومئذنة مسجد الظاهر ، ومئذنة مسجد الصالح ، وبلغ من هولها وشدتها أن تصدع جبل المقطم ، ولم يجد الناس بدّاً أمام هذا الموت إلا الهرب إلى الصحراء ، لأنهم ظنوا أن زلزلة الساعة شىء قريب .

أعقب هذا الزلزال ريح أسود ، يلفح وجوه الناس ، فأغمى على كثير منهم وظنوا أن لا نجاة لهم من هذا البلاء العظيم ، وقد أنشد بعضهم شعراً يصف زلزلة الساعة :

زُلزلتِ الأَرضُ ، فخافَ الورَى وابتهلُوا إلى العـزيزِ الحكيمْ
فليذكروا مَـعْ خوفِهِمْ قولَه : « زلزلةَ[٢] الساعةِ شىءٌ عظيمْ »[٣]

نترك حديث الزلازل فهى كثيرة ، ونقف بعض الوقت عند الطواعين والأوبئة التى رافقت الكوارث الطبيعية ، ونكتفى بالتحدث عن أشد طاعون عرفه الناس فى هذا العصر سنة ٧٤٩ هـ .

يذكر ابن إياس أن الفناء وقع بالديار المصرية ، وعم أرجاء البلاد ، وكانت القاهرة تشيع كل يوم ما ينيف على عشرين ألف جنازة ، وقد أحصى من قضى فى شهرى شعبان ورمضان من هذا العام ، فبلغ تسعمائة ألف إنسان . ويذكر

---

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٢) ضمن الشاعر قوله تعالى : « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » سورة الحج ٢٢ / ١ .

(٣) السلوك جـ ١ ص ٩٤٢ — ٩٤٤ ، وبدائع الزهور جـ ١ ص ٢٤٦ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٥٩ .

أيضاً أنه لم يسمع من قبل بمثل هذا الطاعون المخيف الذى غشى الأرض وأهلك العباد سبع سنين متواليات . وصّف الشعراء هذا الطاعون ، وأصبح يؤلف مع الكوارث الطبيعية غرضاً جديداً ، وحذا الكتاب حذو الشعراء ، فألفوا فى وصفه الفصول والكتب ، أما الشعراء فنذكر منهم الصفدى الذى قال فيه :

لما افترستَ صحابى يا عامَ تسعَ أربعينا
ما كنتَ واللهِ تسعًا بل كنتَ سبعًا يقينا[1]

شمل هذا الطاعون دمشق ، فأكثر أديبنا ابن نباتة من التحدث عنه ومما قاله فيه :

عُجْ عن العُجْبِ ، فهذى جلّقٌ أصبحتْ منهُ على حالٍ ذميمْ
لم تزلْ بالعُجْبِ حتى ضَرَبَتْ نفسَهَا منه بطاعونٍ عظيمْ[2]

ومما قاله أيضاً :

سرْ بنَا عنْ دمشقَ يا طالبَ العيْ شِ فما للمقام للمَرْءِ رَغْبهْ
رخُصَتْ أنفسُ الخلائق بالطا عونِ فيها فكلُّ نفسٍ بحبَّهْ[3]

كما ألف ابن حجر كتاباً سماه« بذل الماعون فى أخبار الطاعون » ، وعقد غيره فصولا فى الكتب التى تشير إلى حوادث العصر.

الجدب والمجاعات

رافق كل هذه الحوادث انحباس الأمطار عن أرض الشام ، وشح مياه النيل ، وانخفاض فى منسوبه ، أجدبت الأرض ، وتضاءلت الغلال ، وعم الغلاء ، وخيم شبح المجاعات على البلاد من أقصاها إلى أدناها . وتكرر انخفاض منسوب النيل ، وتتالت المجاعات عاماً بعد عام ، فبعضها كان خفيفاً

(١) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٩١ .
(٢) الديوان ص ٤٦٨ .
(٣) الديوان ص ٥٠ .

يقوى الناس على احتماله كالذى حدث سنة ٦٢٧ هـ ، فاقتصر على ارتفاع الأسعار لتأخر وفاء النيل وانحباس الأمطار ، وكالذى حدث سنة ٦٤٣ هـ فى ولاية الملك الصالح[١] نجم الدين أيوب ، وشملت موجة الغلاء مصر والشام معاً[٢] ، وكالذى حدث أيضاً سنة ٦٦١ هـ حينما شح ماء النيل وانعدمت بسببه الأقوات [٣].

أما المجاعات الحقيقية الكبرى فقد عرفتها البلاد مراراً ، وقد روى المقريزى أن أمرها قد تفاقم سنة ٦٩٥ هـ ، فأكل الناس بسببها الميتة من المواشى والكلاب وكثر موت الناس ، وصاروا يدفنون الموتى دون غسل ولا كفن[٤]. ولم يقتصر الأمر على مصر ، بل شمل الشام أيضاً ، إذ دخل الشتاء ، ولم يقع المطر ، فأجدبت الأرض ، ويجف العشب وصوّح المرعى ، وارتفعت الأثمان ، وشملت هذه المجاعة الحجاز أيضاً ، فصّل المؤلفون القدامى فى وصف هذه المجاعة ، وذكروا نتائجها بالتفصيل [٥].

أدى هذا الوضع الاقتصادى السيىء الذى ظهر فى العصر الأيوبى ، وبلغ أوجه فى عصر السلاطين المماليك إلى حصول هذه المجاعات ، فجأر الناس بالشكوى ، وخيم الفقر على السواد الأعظم منهم ، وقد دفعهم فى بعض الأحيان إلى مداهمة قبور الصالحين ، ونهب بعض الأماكن المقدسة ، كما حدث للمشهد النفيسى[٦].

حاول بعض المصلحين الاجتماعيين دراسة الوضع الاقتصادى السيىء ، فانبرى المقريزى يعالج ذلك فى كتابه الفريد « إغاثة الأمة فى كشف الغمة » ؛ وقد رأى بثاقب بصره أن أسباب الغلاء فى مصر تعود لأسباب كثيرة ،وعرض من خلال ذلك للغلاء فى الشام والحجاز وبرقة وغيرها ، وصف حالة الناس فى أيام المجاعات ، وما يعتورهم من خوف وحزن ، وتحدث عن نتائج ذلك ، فذكر « أنه صار غذاء الكثير من الناس لحوم بنى آدم حيث ألفوه » [٧].

---

(١) السلوك جـ ١ ص ٢٤٠ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٥٢ .
(٣) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٣ .
(٤) السلوك جـ ١ ص ٨١٣ – ٨١٥ .
(٥) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٣، ١٣٤ .
(٦) السلوك جـ ١ ص ٣٠٦ .
(٧) إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٣٠ .

وشرح لنا هذه الأزمات المتكررة ، وعللها بضعف السلطنة ، واستبداد الأمراء ، وجشع التجار ، وتلاعبهم بالأسواق ، وخبث الطحانين والخبازين ، وعرفاء الأسواق ، وهبوب الرياح الضارة بالقمح ونقصان ماء النيل ...

أما فى الفصل الثانى من كتابه فيشير إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية التى سببت حوادث الغلاء ، وقد فصلها تفصيلا دقيقاً وأرجعها إلى ثلاثة أسباب أولها انتشار الرشوة بين طلاب الوظائف ، فكانوا يستدينون الأموال للحصول عليها ، ثم يرهقون الناس بجمع المال لتعويض ما بذلوه ، وثانيها ارتفاع إيجار الأراضى الزراعية نتيجة لرغبة خدام الأمراء فى التقرب إليهم بهذا العمل الظالم، وقد هجر الفلاحون قراهم ، فتضاءلت الغلال وكانت سبباً فى كثرة المجاعات، وثالثها اضطراب العملة ...

نخلص من كل هذه الدراسة إلى القول إن هذا الوضع الاقتصادى يعد سيئة من سيئات هذا العصر ، فلا غرابة إذا كان ابن نباتة أمير شعراء عصره يشكو العوز فى أرض كنانته ، ولا غرابة أبداً إذا رأيناه يغادر بلده الطيب نحو آفاق جديدة لعله يشيم برقاً كبرق أبى الفداء .

القسم الثالث
الحياة الدينية

يحتل الدين لدى كل أمة مكاناً رئيسيًّا فى حياة الجماعات ، وبخاصة فى هذا العصر الذى نؤرخه ، تمهيداً لدراسة ابن نباتة . ولابد لنا من وقفة عند المذاهب الدينية .

المذاهب الدينية

اعتمد الأيوبيون منذ بدء عهد صلاح الدين على المذهب الشافعى بعد إلغائهم المذاهب الإمامية والإسماعيلية الأخرى ، غير أنهم لم يفلحوا فى القضاء

تماماً على ما خلفه الفاطميون ، لا لأن الشعب المصرى كان يتمسك أو يؤمن بها الإيمان المطلق ، بل لأن الكثير من مظاهر التشيع والرواسب الدينية الأخرى قد طبعت حياة هذا الشعب بطابعها ، ودرجت مع كثير من عاداته . ومن الطبيعى أن يمر عليها حين من الدهر ليتم التخلص منها ، وقد تبقى بين عاداته دون أن يشعر بها .

يذكر شمس الدين الدمشقى أن بلدة « أصفون » القريبة من الأقصر قد وجدت فيها طائفة من الإسماعيلية والرافضة والإمامية والدرزية والحاكمية فى القرن الثامن الذى يضم الشطر الأعظم من حياة أديبنا ابن نباتة ، فلا نعجب إذا رأينا فى شعره نفحات شيعية كما سنشير إلى ذلك فى موضعه من هذا البحث . استمر تيار التشيع قوياً طوال العصر الأيوبى ، وجاء عصر سلاطين المماليك ، فاحترموا العلويين بما عرف عنهم من حب لآل البيت ، وميزوهم بعلامة خضراء فى عمائمهم [١] تكريماً لهم ، وكان معظمهم إذ ذاك من الشيعة الزيدية .

كان هذا فى بدء حكمهم ، لكنهم فقدوا احترامهم عندما بدأ العلماء بتكفيرهم ، وبلغ الأمر منتهاه حين قام أحد كبار العلماء فى هذا العصر وهو فخر الدين بن تيمية ورمى طوائف الشيعة بأنهم أكفر من اليهود والنصارى ، وأفتى بمحاربتهم والقضاء عليهم [٢].

أما سلاطين المماليك فساروا على سنة علمائهم ، فبدأوا باضطهادهم بعد أن حدثت الثورات الشيعية ، نشير منها بصورة خاصة إلى أشدها خطراً .

قام جماعة من السودان والغلمان والركبدارية [٣] سنة ٦٥٨ هـ بثورة على المماليك ،وقد تزعم هذه الجماعة الثائرة زاهد متعبد ، يسكن قبة فى أعلى الجبل ، وكان يهدف من هذه الثورة إلى الاستيلاء على السلطان ، وتوزيع الإقطاعات على أتباعه الثائرين ، ونشر المذهب الشيعى . بدأت ثورتهم

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢١٦ .

(٢) دراسات فى الحياة الاجتماعية ص ١١٣ .

(٣) الركبدارية : هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب الرسمية كموكب العيد وغيره . وهم تابعون للركاب خاناه . صبح الأعشى : ج ٤ ـ ص ٧ ؛ والعصر المماليكى ص ٤٢٠ .

بالسير فى شوارع القاهرة يهتفون : (يا آل على) ، فاقتحموا دكاكين السيوفيين واستولوا على ما فيها من سلاح ، واقتحموا الاصطبلات ، فاقتادوا منها الجياد ، غير أن عساكر الظاهر بيبرس أحاطوا بهم ، وصلبوهم ، وعلقوا جذوعهم المصلبة خارج باب زويلة[١].

إحياء الخلافة العباسية

حاول الظاهر بيبرس إحياء الخلافة الإسلامية بعد أن قضى عليها التتار ليدعم حكمه — كما أشرنا إلى ذلك خلال عرضنا الجانب السياسى من العصر — ولا سيما أنه قد مضى على مقتل الخليفة العباسى فى بغداد ثلاث سنين ونصف .

تمت مبايعة المستنصر بالله خليفة للمسلمين خلفاً للخليفة المستعصم بالله ، وقد جرت البيعة له فى يوم مشهود ، وكان إحياؤها فى أرض الكنانة نصراً كبيراً للسنة ومذاهبها الأربعة ، وإحياء للحركة الفكرية التى تابعت نشر نورها من القاهرة .

أوضح السيوطى أهمية بعث الخلافة العباسية من مرقدها ، فذكر أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلت معها السنة ، وعفت منها البدعة ، وصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء[٢].

عدّ المذهب الشافعى المذهب الرسمى للدولة ، وقد تميز قاضى هذا المذهب منذ العصر الأيوبى بمميزات خاصة ، فكان يلبس الطرحة فى المواكب ، كما كان القاضى الوحيد الموكل بالخطابة والصلاة بالسلطان[٣] .

أما فى خارج القاهرة فيمثله نواب آخرون يتولون عنه الحكم[٤].

تختلف منزلة المذاهب السنية الثلاثة الأخرى بالنسبة للمذهب الشافعى ، إذ يليه المذهب الحنفى فالمذهب المالكى فالمذهب الحنبلى . لم يكتف الظاهر

---

(١) السلوك ج ١ ص ٤٤٠ .
(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٥ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٦٥ .
(٤) المصدر السابق .

بالقضاء على ثورة العلويين ، وإحياء الخلافة من جديد بل اهتم بالمذاهب السنية الثلاثة الأخيرة ، ليحد من استفحال المذهب الشافعى ، بعد ما لمسه من طغيان سلطان قضاته على كثير من أموره ، وبخاصة منها تجاوز هؤلاء ذلك الموقف للوقوف فى وجهه . حدث هذا سنة ٦٦٠ هـ عندما عزل قاضى القضاة الشافعى برهان الدين السنجارى. وأعاد القاضى عبد الوهاب ابن بنت الأعز وطلب منه أن يستنيب عنه ثلاثة قضاة من المذاهب الثلاثة الأخرى ، أولهم يمثل المذهب الحنفى ، وهو صدر الدين بن سليمان ، وثانيهم يمثل المذهب المالكى ، وهو شرف الدين عمر السبكى ، وثالثهم يمثل المذهب الحنبلى ، وهو شمس الدين محمد بن إبراهيم[١] .

أتبع الظاهر هذه الخطوة بخطوة أخرى ، توخى منها أن يجعل للمذاهب السنية الثلاثة الأخرى كياناً خاصًّا ، وقد أدى هذا الأمر إلى تعدد القضاة بالإضافة إلى القاضى الشافعى ، انتهز الظاهر العداوة القائمة بين القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز والأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، وقد كان هذا الأمير يحط من قدر القاضى لتشدده فى الأحكام ، وتوقفه فى كثير من القضايا التى لا توافق مذهبه ، وقد حدث ذات مرة فى مجلس السلطان نقاش وتنافر بين القاضى والأمير بسبب قصة رفعها بنات الملك الناصر . وفى ختام المجلس قال الظاهر للقاضى ابن بنت الأعز : « يا قاضى ، هكذا تكون القضاة ؟ »، كما حدث فى المجلس نفسه نقاش حول كثير من الأمور الأخرى ، وكأنما كان هذا الأمر مبيتاً بليل ، فقال الأمير : « يا قاضى مذهب الشافعى لك ، وولى من كل مذهب قاضياً » .

تبنى السلطان رأى الأمير فولى الشيخ صدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية ، وشرف الدين عمر السبكى قضاء المالكية ، والشيخ شمس الدين محمداً قضاء الحنابلة[٢].

---

(١) السلوك جـ ١ ص ٤٧١ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ٩٩ .

(٢) السلوك جـ ١ ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، والنجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢١٨ ، وحسن المحاضرة جـ ٢ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

حاول الظاهر بيبرس بعد هذه الخطوة الجريئة القضاء على كل المذاهب الدينية الإسلامية الأخرى ، عدا المذاهب السنية الأربعة ، فأمر سنة ٦٦٥ هـ ألا يُولى قاض ، ولا تقبل شهادة شاهد ، ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس مالم يكن مقلداً لأحد هذه المذاهب الأربعة[١].

اشتد الصراع بين هؤلاء القضاة ، فأشار السيوطى إلى أن أهل التجربة من الشافعية يعتقدون أن هذه الأقاليم المصرية والشامية والحجازية متى كان البلد فيها لغير الشافعية خرب ، ومتى قدم سلطانها غير أصحاب الشافعى زالت دولته سريعاً ، وكأن هذا السر جعله الله فى هذه البلاد ، كما جعله الله لمالك فى بلاد المغرب ، ولأبى حنيفة فيما وراء النهر[٢] .

يعتقد هؤلاء كذلك أن كل حاكم يتولى عرش مصر ولا يكون شافعيًّا فإنه سيقتل سريعاً ، ويستدلون على ذلك أن كل سلاطين المماليك كانوا من أتباع الإمام الشافعى إلا قطز فكان حنفيًّا ، ومكث يسيراً وقتل بعد ذلك ، لكن الواقع يثبت — كما نرى — أن معظم سلاطين المماليك قتلوا أو خنقوا أو أغرقوا ، وندر منهم من مات حتف أنفه .

ازدهار التصوف

ازدهر التصوف فى هذا العصر ،وتطور تطوراً خطيراً أخرجه فى بعض الأحيان عن الدين . وما دمنا الآن فى معرض الحياة الدينية فالأحرى بنا أن نجلى هذا المظهر الدينى الهام ، ولا سيما أننا نلمح فى أدب ابن نباتة من المعانى والألفاظ ما يشعرنا بطغيان هذه الموجة الصوفية العارمة التى شملت بعض السلاطين وكثيراً من العلماء الذين أيدوهم ، ونظروا إليهم نظرة الإجلال والاحترام .

قال الشيخ تاج الدين السبكى يمدحهم ، « حيَّاهم وبيَّاهم ، وجمعنا فى الجنة نحن وإياهم »[٣] .

يحسن بنا — ونحن نقدم لدراستنا — أن نعرض لأهم العوامل التى جعلت التصوف ينتشر هذا الانتشار السريع الواسع بين عامة الشعب ، فلو أنعمنا النظر بالأخطار الخارجية لكان لنا منها ما يجعلنا نعتقد كل الاعتقاد أنها كانت

---

(١) الخطط جـ ٤ ص ١٦٦ . (٢) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٠٠ .

(٣) معيد النعم ص ١٢٩ .

من العوامل الرئيسية فى طغيان الموجة الصوفية . فالتتار القادمون من الشرق قوضوا معالم الحضارة الإسلامية فى بغداد ، وقتلوا الخليفة والعلماء ، وزحفوا بجيوشهم يطرقون أبواب مصر والشام. والغربيون يهددون الأندلس العربية فردوسنا المفقود، والصليبيون يعيثون فساداً فى سواحلنا وثغورنا ويهددون بيت الله الحرام .

يضاف إلى هذا الخطر الجاثم على البلاد ما انتشر فيها من كوارث وما أصابها من أوباء وطواعين ، وما انتابها من مجاعات . كل ذلك دفع الناس فى طريق الدين تحت ظلال التصوف ، ينشدون لديهم رحمة الله وعفوه .

استمد التصوف عناصره الأولى من الإسلام . وكان المتصوفة المسلمون الأول يقتصرون فى زهدهم على العبادة والتفكر فى الله وفى خلقه . كما كانوا يكبتون شهوات النفس ورغائبها ، ويرضون من العيش بما يسد الرمق ويقيم الأود .

استغل العلويون التصوف . فاستمد المتصوفة منهم كثيراً من مذاهبهم واتجاهاتهم ، لأن العصر الفاطمى شجع على التصوف . وأصبح مطبوعاً بطابع التشيع ، وقد ذكر ابن خلدون ذلك ، وقال : إن كثيراً من العقائد الأساسية فى التصوف إنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم فى كتبهم . كذلك فإن المتأخرين منهم قد آمنوا بالكشف وفيما وراء الحس ، وتوغل فى ذلك كثير منهم ، فذهب إلى الإيمان بالحلول والوحدة[1] .

وقد حاول صلاح الدين بدوره أيضاً أن ينشر التصوف السنّىّ ، ليستطيع أن يقضى على بقايا المذهب الشيعى . وهكذا تطور التصوف من شكله البسيط فى العصر الأيوبى إلى اتجاه خاص . له نظامه وطرقه وتعاليمه ، وبخاصة عندما استمد من الديانات الأخرى الشئ الكثير ، ومما أخذه من الفلسفات القديمة المنتشرة فى ذلك العصر ..

ساعد سلاطين المماليك أيضاً على نشر التصوف ، وكأنهم كانوا يريدون من ذلك إلهاء الشعب عن وضعه وتركه تحت رحمة الأقدار ، تعبث به السلطات الحاكمة تحت ستار من الدين . اعترفوا بهم كطائفة دينية خاصة . وكان

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٧٣ .

شيخ كل فرقة يعين من قبل السلطان . فيخلع عليه ، وينزل من القلعة فى حفل كبير ، يحيط به جميع فقراء طائفته[١].

انقسم الصوفية إلى طوائف متعددة ، ولكل منها شعارها الخاص بها ، فالأحمدية شعارها اللون الأحمر ، والرفاعية شعارها اللون الأسود ...

أما أشهر المتصوفة فى القرن السابع الهجرى فهم أبو الحسن الشاذلى المرسى وأبو القاسم القبارى . والسيد أحمد البدوى وغيرهم كثير[٢].

سمى الصوفيون أنفسهم بالفقراء ، ويؤيد هذه التسمية ما ذهبت إليه من أن الوضع الاقتصادى السيىء كان من جملة العوامل المساعدة على انتشار هذه الظاهرة الدينية . ويكفى أن يُلبس رئيس الطائفة أى فرد خرقة تصوف ليصبح فى عداد أعضائها العاملين ، وعلى العضو المنتسب أن يطيع رئيسها طاعة عمياء ، وأن يفصح له عن كل ما فى نفسه .

أصبح المتصوفة بما أجرى عليهم من رزق متكلين على غيرهم ، فكانوا يقيمون فى أماكن خاصة ، زودت بمختلف ما يحتاجون إليه فى حياتهم اليومية ، وقد دعيت هذه الأماكن بالخوانق والربط والزوايا .

لن نطيل الوقوف عند التصوف المعتدل الذى لم يخرج عن الإسلام ، وإنما نقف طويلا عند بعض الطوائف التى تطرفت فى آرائها ومذاهبها ، فاستمدت من المسيحية كثيراً من مبادئها ، وقد ذكر نيكلسون أن كثيراً من نصوص الإنجيل ومن الأقوال المنسوبة إلى السيد المسيح عليه الصلاة والسلام مقتبس فى أقدم تراجم الصوفية[٣] . كما أنهم استمدوا من الغنوصية بعض مبادئهم فى المعرفة ، ومن البوذية كثيراً من العادات التى لاتزال منتشرة ، ومنها استعمال السبح التى عرفت عند الأحبار البوذيين[٤] ، أدى هذا التطرف إلى نشوء جماعات أطلق عليهم اسم المجاذيب أو الدراويش ، وقد ذاع أمرهم بما كانوا يقومون به من أعمال غريبة ، وما يتخذونه من أزياء عجيبة .

---

(١) بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٨ . (٢) دراسات فى الحياة الاجتماعية ص ١١٨ .
(٣) الصوفية فى الإسلام ص ٢٢ . (٤) المصدر السابق .

القلندرية والبكتاشية

قد يكون من الطريف أن أعرض لبعض الطوائف الصوفية المتطرفة التى عرفت فى عصر ابن نباتة ، فأذكر منها طائفتين : القلندرية والبكتاشية .

أما القلندرية فتنتسب إلى عربى أندلسى يدعى « قلندر يوسف »[١] ، وقد ظهر مؤسس هذه الطائفة فى دمشق سنة ٦١٠ هـ ، وكان أتباعه يحلقون شعرهم ولحاهم وحواجبهم وأهداب أعينهم ، لكن السلطان الناصر حسناً أمر سنة ٧٦١ هـ بعد ما رأى من استفحال أمرهم « بإلزامهم بزى المسلمين وترك زى الأعاجم والمجوس ، فلا يمكن أحد منهم من الدخول إلى بلاد السلطان حتى يترك هذا الزى المبتدع واللباس المستشنع ، ومن لا يلزم بذلك يعزّر شرعاً ويقلع من قراره قلعاً »[٢] .

انتقد ابن كثير هذا القرار ، وقال : كان من اللائق أن يؤمروا بترك الحشيشة ، وإقامة الحد على المدمنين عليها [٣] إذ نسب إلى هذه الفرقة تعاطى الحشيش ، وأصبح اسمها بالتالى يطلق عليه . نشير من هذه الفرقة إلى الصوفى الكبير أبى سعيد بن أبى الخير الذى يذكر أنهم لن يؤدوا فروضهم الدينية حتى يجعلوا كل مسجد حطاماً ، ولن يظهر المسلم حق المسلم مالم يصر الإيمان والكفر واحداً[٤] .

وأما البكتاشية فطائفة صوفية متطرفة شيعية عاصرت القلندرية ، وقد تطرفت كثيراً فى آرائها وسلوكها حتى خرجت عن الإسلام . تنسب هذه الطائفة إلى مؤسسها الحاج بكتاش ، وهو ولى من أولياء المسلمين ، ظهر فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، وقد استمدت هذه الطائفة كثيراً من تعاليمها من المسيحية ،

---

(١) الموسوعة الإسلامية جـ ٣ ص ٦٧٦ .
(٢) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٧٤ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) الصوفية فى الإسلام ص ٨٨ .

وقد عرف عندهم بما يشبه العشاء الربانى : فكانوا يوزعون فى اجتماعاتهم الخاصة النبيذ والخمر والجبن . ويعترفون لشيخهم الأكبر بخطاياهم ، ويطلبون منه الغفران . آمن هؤلاء أيضاً بالتثليث فالله أولا ومحمد ثانياً وعلى ثالثاً . كما شاب عقيدتهم الإيمان بتناسخ الأرواح . وخلصوا من ذلك كله إلى القول بالمساواة بين الأديان السماوية وعدم جدوى الشعائر الدينية . انتشرت هذه الطائفة فى كثير من نواحى العالم الإسلامى ، ولهم تكية خاصة بهم فى جبل المقطم[١].

نخلص بعد ذكر هاتين الطائفتين إلى القول : إن التصوف خرج من مبادئه الأولى لدى بعض هذه الفئات المتطرفة . وقد روى عنهم أنهم كانوا يتخذون الحرافيش وغيرهم أصدقاء لهم ، كما كانوا يتخذون الآلات الموسيقية فى حلقات الذكر . وانقلبت زواياهم إلى مكان يرتاده أصحاب المغانى ، فيشربون الخمور ، ويتعاطون الحشيش . وقد أصبح خاصة بهم مقروناً باسمهم . فقالوا : حشيشة الفقراء[٢] ، وقد ذكر العينى أن أحد الصوفية قال يتغنى بالحشيش :

وخضراءَ لا الحمراءِ تَفْعَلُ فِعْلَهَا لها وَثَباتٌ فى الحَشَا وثَبَاتُ
تُؤَجِّجُ نارًا فى الحَشَا وهى جَنَّةٌ وتُبْدِى مريرَ العيشِ وهْىَ نَبَاتُ[٣]

نكتفى بهذا القدر فى الحديث عن حشيشة الفقراء ، فلنا إليها عودة فى الأمراض الاجتماعية فى هذا العصر .

الصراع الدينى

امتازت الحياة الدينية بالصراع بين الدين والإلحاد ، وقد أشار ابن حجر فى الدرر إلى بعض الذين قتلوا بسبب استهتارهم بأمور الدين وتماديهم فى الإلحاد والكفران . أضيف إلى هذا الصراع صراعاً آخر بين رجال الدين أنفسهم وبين المذاهب المختلفة ، نذكر من ذلك ما حصل للشيخ تقى الدين

---

(١) الموسوعة الإسلامية جـ ٤ ص ٣٧ – ٤٠ .
(٢) السلوك جـ ٤ ص ٣٣٩ .
(٣) دراسات فى الحياة الاجتماعية ص ١٧١ .

ابن تيمية مع المتصوفة الأحمدية الذين كانوا يحظون بتأييد نائب السلطنة ، وقد وقف من بعض عقائدهم ومشايخهم موقفاً صلباً ، أدى لعقد ثلاثة مجالس لمناقشة موقفه من هؤلاء، وقد حبس فى القاهرة بقلعة الجبل، ونفى إلى الإسكندرية، وعلى الرغم من ذلك كله استمر فى موقفه الصلب يناهض أعداءه من العلماء الحاقدين والحاسدين حتى زال حكم بيبرس الجاشنكير ، وعاد الناصر محمد . فطلب من الشيخ ابن تيمية أن يحضر من الإسكندرية ، فأحضر معززاً مكرماً ، وصفح عن أعدائه من إخوانه العلماء[1]. هذا فى مصر ، أما فى الشام فقد ختمت حياته وهو رهن محنة محبسه .

لم يقتصر الصراع الدينى على المسلمين أنفسهم بل تعداهم ، فشمل أهل الذمة من يهود ونصارى . تلك هى صورة عابرة عن هذا الصراع الدينى ، والجدير بالذكر هنا أن نشير إلى الأعياد الدينية التى كانت تقام فى مختلف المناسبات ، كالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى ، وإقامة الموالد النبوية فى شهر ربيع الأول ، وكانت هذه الاحتفالات تفوق حد الوصف والتصور ، وتبذل فى سبيل إقامتها الأموال الكثيرة ، وتوزع الحلوى وغير ذلك .

نضيف إلى هذه الأعياد الدينية أعياداً أخرى تاريخية نشير منها إلى الاحتفالات الكبيرة فى كسر الخليج وما يرافق ذلك من طقوس خاصة بعد أن يتم وفاء النيل . كما نشير أخيراً إلى أعياد النيروز وغيرها من أعياد الطوائف الأخرى التى كان الشعب يشارك بها أهل الذمة .

القسم الرابع
الحياة الخلقية

أحاول فى ختام حديثى عن الحياة الاجتماعية أن أتحدث عن الأخلاق فى هذا العصر الوسيط ، وأقف بصورة خاصة لأبين ما اعتور هذه الأخلاق من أمراض اجتماعية خطيرة ، لعل أبرزها البغاء والفسق .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٤ ص ٣٦ ، ٤٥ ، ٥٣ .

البغاء والفسق

ليست المفاسد فى هذا العصر بشىء جديد، بل كانت متفشية منذ العصر الفاطمى ، وقد ذكر القاضى الفاضل أنه رأى بمصر الفاطمية من البغى ومن المعاصى ومن الجهر بالفسق والزنا وغير ذلك مالم يسمع به أو يعهد مثله[١].

اعترف سلاطين المماليك بالبغاء ، واستوفوا من البغايا ضرائب مقررة[٢]، واستمر الحال على هذا المنوال حتى عمت المفاسد أرض مصر بأكثر مما شاهده القاضى الفاضل فى العصر الفاطمى .

كانت المواخير قائمة تعج بالبغايا ، والخانات تطفح بالخواطى والمستهترين ، والحانات ساهرة ليل نهار ، يتردد عليها روادها . يضاف إلى ذلك انتشار الخلاعة والمجون مما لم نعهد له مثيلا فى التاريخ .

الخمر والحشيش

أصبح الإدمان على الخمر والحشيش معروفاً لدى معظم الناس عامتهم وخاصتهم ، واستعاضوا به عن الخمر لأنها محرمة نصًّا فى الإسلام ، وفضلوه عليها ، وأنشدوا فيه القصائد ، ومما زاد الأمر سوءاً أن القاضى جمال الدين الحلبى أفتى بجواز أكل الحشيش بالإضافة إلى فتواه بجواز الربا[٣]. استهوت آفة الحشيش حتى العلماء أنفسهم ، نذكر منهم ابن الصاحب[٤] قريب القاضى ابن بنت الأعز ، وقد كان

---

(١) الخطط جـ ٣ ص ٣٧ ، ٣٨ . (٢) السلوك جـ ٣ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٣) رفع الإصر (مخطوط) و ٢٧٩ .

(٤) علم الدين أحمد بن الصاحب صفى الدين يوسف ، المعروف بابن الصاحب ، وكان نادرة زمانه فى الخلاعة والمجون والهزل ، يتعمم بشرطوط طويل جدًّا رقيق العرض ، ويصحب الحرافيش ، وينشد الأشعار والبليقات . والمعروف عنه أنه عكف فى صباه على العلم فحصل ودرس ، وأنه يتمتع بالفضيلة والذكاء وحسن التصور ، إلا أنه تخلى عن وقاره ، وأطلق طباعه على التكدى ، وصار يركب فى قفص على رأس حمال يدور به فى أماكن التنزه والفرج . توفى سنة ٦٨٨هـ .=

شيخاً عالماً ، فتعاطى الحشيش ، وتخلى عن وقاره ودينه ؛ وطفق يدمن عليه ، لأنه لم يرض تحريم العلماء ،

فى خُمارِ الحشيشِ معنى مَرَامى يا أُهيلَ العقولِ والأَفهامِ
حَرّموها منْ غيرِ عقلٍ ونقلٍ وحرامٌ تحريمُ غيرِ الحرامِ[1]

يدلنا البيت الأخير على أن انتشاره يرجع فى الأصل لعدم ورود نص بتحريم الحشيش ، لكن العلماء أجمعوا على تحريمه باعتباره مسكراً ، فحُرِّم كما حرمت الخمر قياساً عليها . فإذا اعترض هذا العالم الماجن على تحريم الحشيش ، فماذا يقول إذاً عامة الناس ، وبخاصة منهم فقراء الحشيشة من المتصوفة ، إذا جاز لنا أن نضيف المضاف إليه ؟ ولا بأس علينا أن نستمع للعالم الماجن يصف لنا لهوه وسكره :

يا نفسُ ميلى إلى التَّصَابِى فاللهوُ منهُ الفَتَى يعيشُ
مِنْ سكرِ يومٍ ولا تَملَّى[2] إنْ أَعْوَزَ الخمرُ فالحشيشُ[3]

وكان كثيراً ما يجمع بينهما (الخمر والحشيش) فلا يهتدى من السكر :

جمعْتُ بينَ الحشيشِ والخمرِ فرُحْتُ لا أَهْتَدِى من السُّكْرِ
يا مَنْ يُرينى لِبَـابِ مدرستِى يربحُ واللهِ غـايةَ الأَجْرِ[4]

هال الظاهر بيبرس ما رآه من انحلال خلقى ومفاسد اجتماعية فى مصر والشام وغيرهما فأصدر أمراً عمه فى كل الأقاليم بهدم المواخير وإغلاق

= المنهل الصافى (مخطوط) ج ١ و ١٧٤ ؛ والنجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٧٨ — ٣٨٠ .

(١) البداية والنهاية ج ١٣ فى ٣١٤ ؛ والمنهل الصافى (مخطوط) ج ١ و ١٧٥ ؛ والنجوم الزاهرة ج ٧ فى ٣٨٠ .

(٢) الشطر الأول من البيت الثانى (ولا تملى من سكر يوم) وهو غير مستقيم الوزن ، والصواب بعد التقديم والتأخير (من سكر يوم ولا تملى) كما أثبتناه ، ولعل ذلك من وهم الشاعر أو عبث الناسخ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١٥ ؛ والمنهل الصافى (مخطوط) ج ١ و ١٧٤ ؛ والنجوم الزاهرة ج ٧ فى ٣٨٠ .

(٤) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣١٥ .

الحانات . وإهراق الخمور ، والطريف أنه لما وردت مراسيم التحريم لقاضى الإسكندرية قال :

ليسَ لإبليسَ عنـــدنَا أَرَبٌ غيرُ بلادِ الأَمير مـــأْوَاهُ
حرَمْتَـــهُ الخمرَ والحشيشَ معًا حَـــرَمْتَـــهُ ماءَهُ ومْرعَـــاهُ

أما أبو الحسين الجزار فقد أسف على تعطيل كوبه :

قد عُطِّلَ الكوبُ من حبابِهْ وأُخْلِىَ الثغرُ من رُضـابِهْ
وأَصبحَ الشيخُ وهـــو يبكى على الذى فاتَ مِنْ شبابِهْ[1]

طبق أمر السلطان بشدة متناهية ، ويروى ابن إياس أنه أحضر ابن الكازرونى وهو سكران ، فأمر السلطان بصلبه . وعلقت الجرة والقدح فى عنقه[2]

أسف أصحاب الخلاعة والمجون على صاحبهم المصلوب ابن الكازرونى ، وعرض بعضهم بهذ الأمر فأنشد قائلا :

لقدْ كانَ حدُّالسكرِ منْ قبلِ صلبِهِ خفيفَ الأَذَى ،إذْ كانَ فى شرعِنَا جَلْدَا
فلمّا بدَا المصلوبُ قلتُ لصاحبى : أَلاتُبْ فإنَّ الحدَّ قَدْجاوَزَالحدّا[3]

صور الشيخ شمس الدين محمد بن دانيال صاحب كتاب « طيف الخيال » حال مصر بعد عودته من الموصل فذكر أنه وجد مواطن الأنس دارسة ، وسمع بقصة المصلوب ابن الكازرونى ، وذكر أيضاً اعتذار صديقه إليه لتقصيره فى الإكرام ، إذ لم يأته بالمدام ، وقال له : « قد غلب ظنى أن أبا مرة قد مات ، وعدّ من الرفات ، فقم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ونرثيه » .

لبى ابن دانيال طلب مضيفه فأنشده قصيدة يرثى بها شيخه إبليس :

ماتَ يا قومُ شيخُنا إبليسُ وخلا منهُ ربعُهُ المأْنوسُ
وَنَعَـــانى حدْسى بهِ إذْ تُوفِّى ولَعَمْرِى ممـــاتُه محـــدوسُ

(١) السلوك جـ ١ ص ٥٥٤ .
(٢) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٤ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) أبو مرة : كنية إبليس .

هُوَ لمْ يَنْعِهِ ـ كما قلتُ ـ ميْتًا ... لمْ يُغَيِّرْ لأَمـــرِه ناموسُ[١]

أَينَ عيناهُ ؟ تنظُر الخمرَإِذْ عُطَّ ... لَ منها الراووقُ[٢] والمحريس[٣]

ومواعينُها[٤] تكسّرْنَ والخمّـ ... ـارُ منْ بعدِ كسرِهَا محبوسُ

أَينَ عيناهُ؟ والحشائشُ إِذْ تُحـ ... ـرقُ[٥] بنارٍ تُراعُ منهَا المجوسُ

قَلَعُوهَا من البساتينِ إِذْ ذا ... كَ صغارًا خضراءَ وهْيَ عروسُ

والحرافيشُ[٦] حوْلَهَا قَدْ تباكَوْا ... بدموعٍ يُطفَا[٧] بهن الوطيسُ[٨]

أَينَ عيناهُ ؟ تنظرُ المِزْرَ[٩] قَدْ أَو ... حَشَ منهُ الماجُور[١٠] والقادوسُ[١١]

وعجينُ[١٢] البقولِ قد بدَّدُوهُ ... وهو بالتُّربِ خَلْطُهُ مبسوسُ

والقنـــانى مكسّراتٌ كما قدْ ... كُسِّرَتْ فى دُجا الليالى الكؤوسُ

وذوو القصفِ ذاهلون وقد كا ... دتْ على سيلِها تسيلُ النفوسُ

وفتًى قائلٌ لقدْ هـــانَ عنـــدى ... بعدَ هذا فى شربِهَا التجريسُ

---

(١) الناموس : كلمة من الدخيل ، ومعناها هنا الشريعة والمذهب ، وتطلق فى أصل الوضع على صاحب السر المطلع على باطن الأمر .

(٢) الراووق : فاجود الشراب الذى يروق به فيصفى ، والشراب يتروق منه من غير عصر . والسّرى الرفاء خمسة أبيات فى وصف الراووق ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

(٣) هذا اللفظ معروف ومستخدم فى العامية المصرية بمعنى وعاء الخمر أو ما أشبه ذلك .

(٤) المواعين : جمع الماعون ، وهو اسم جامع لأسقاط البيت كالدلو والفاس والقدر والقصعة ، والمعنى الأخير هو المراد .

(٥) سكن آخر الفعل (تحرق) لضرورة شعرية ، وحقها الرفع ، ليستقيم الوزن .

(٦) حرافيش : جمع حرفوش ، وتجمع أيضاً على حرافشة ، وهم الرعاع والدهماء وضعاف الخلق ، وقد أوردها دوزى فى معجمه ملحق المعاجم العربية (S,D.A.) .

(٧) يطفا : أى يطفأ ، وقد خفف الهمز لضرورة شعرية طارئة .

(٨) الوطيس : هو التنور أو نحوه .

(٩) المزر : بكسر الميم ، من أسماء الخمر ، وتطلق على نبيذ الذرة أو الشعير .

(١٠) الماجور : هذا اللفظ مستخدم حتى الآن فى العامية المصرية بمعنى الوعاء .

(١١) القادوس : إناء يخرج به الماء من الساقى ، والقدس : السطل .

(١٢) القنانى : جمع قنينة ، وهى فى الأصل إناء من الزجاج للشراب .

كمْ خليعٍ يقولُ : ذا اليومُ يومٌ ... مثلما قِيلَ قَمْطريرٌ عبوسُ[١]
وقضيبٌ ونرجسٌ وسعادٌ ... باكياتٌ وزينبٌ وعروسُ
ذى تُنادى حَريفَهَا[٢] لوداعٍ ... لا عناقٌ لا ضمٌّ لا تَبْويسُ[٣]
ويُنادِي قوادُهُم : شَهْ[٤] علينا ... نجمُ ستّى قَدْ نكَّسَتْهُ العكوسُ
مَنْ لنا مُنْصِفٌ لِجَورِ زمانٍ ؟ ... لا قِحابٌ[٥] فيهِ ولا خندريسُ[٦]
وتَرَى زنكلونَ يزعقُ : زيتو ... نُ وناقو يصيحُ : يا جاسوسُ
أينَ شَكْشَكَتِى[٧] وطاجنةُ الفا ... رِ ؟ وأَيَن المِزْراقُ[٨] والدَّبوسُ ؟[٩]
نهبوا الحِصْن والطراطيرَ[١٠] والطا ... رَ[١١] وضاعتْ خريطتى[١٢] والفلوسُ
ارحلوا هذه بلادُ عفافٍ ... وسُعود الخِلاعِ فِيهَا نحوسُ
مَنْ لنا بعدَ ذلكَ الشيخِ إلفٌ ... وسميرٌ ومؤنسٌ وأنيسُ ؟
لا تَرَى بَعْدَهُ فتًى ضاحكَ السِّـ ... ـنّ وكلٌّ يبدو له تعبيسُ
فسأبكيهِ أرمَدَ العينِ حتَّى ... لشفائى يعيشُ جالينوسُ[١٣]

---

(١) العبوس القمطرير : أى الشديد .
(٢) حريفها : حريف الإنسان معامله فى حرفته .
(٣) التبويس : من أصل فارسى ، مصدر بوس أى قبل .
(٤) شه : فى اللسان أن كلمة (شه) حكاية كلام شبه الانتهار ، وهو معرب (شه) من أصل فارسى ، بمعنى اسم صوت ، أو كلمة تدل على النفرة والكراهة .
(٥) قحاب : جمع قحبة ، وهى كلمة مولدة ، تطلق على المرأة البغى ، لأنها كانت فى الجاهلية تؤذن طلابها بقحابها وهو سعالها .
(٦) خندريس أى خمر قديمة . قال ابن دريد أحسبه معرباً ، وسميت بذلك لقدمها . قال الفيروزبادى : إنه مشتق من الخدرسة ولم تفسر ، أوهى رومية .
(٧) شكشكتى : الشكشكة هى السلاح الحاد ، أو حدة السلاح .
(٨) المزراق : الرمح القصير .
(٩) الدبوس : وهو المقمعة ، أى عصا من خشب أوحديد فى رأسها شىء كالكرة ، وهو معرب .
(١٠) الطراطير : جمع الطرطور ، أى قلنسوة للأعراب طويلة الرأس دقيقة .
(١١) الطار والطارة عند العامة آلة موسيقية من آلات الطرب كالدف يضرب بها .
(١٢) خريطة : وعاء من أدم وغيره يشد على مافيه .
(١٣) بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

أوردت هذه القصيدة كاملة ، لم أنقص منها ، فقد أبى ابن دانيال على المحنة التى أصابت أرباب المجون والخلاعة ، وقد أسف الشاعر بعد عودته من الموصل على ديار الأنس الدارسة ، وأسف أيضاً على موت شيخه إبليس ، وتمنى لو اكتحلت عيناه بمنظر الخمرة وهى تهرق ، والحشيش وهو يحرق بنار يخافها حتى عبادها . كما أنه وقف يصف لنا أسف الناس ، فذكر أرباب البغاء والمجون ، وما حل بهم من جور الزمان ، وأسف لأنه افتقد سميره المؤانس بعد مصرع إبليس ، ووعده صادقًا أن يبكى عهده بعين رمداء ، فلعل جالينوس يبعث حيًا ليشفيه .

الإباحية والمجون

إن مما ساعد على تفشى هذه المفاسد جواز تتبع الرُّخص ، يضاف إلى ذلك ترخيص بعض العلماء للأمراء وذوى السلطان بإباحة بعض المحرمات ، وقد أشار تاج الدين السبكى إلى ذلك ، فذكر أن بعض المفتين من الفقهاء « منهم من يسهّل أمر الشرع ، ويتناهى إلى أن يفتى ببعض مالا يعتقده من المذاهب ، ويرخص لبعض الأمراء مالم يرخص منه لعموم الخلق بعض العلماء ، فيقول مثلا لمن سأله عن انتقاض الوضوء بمسّ الذكر : لا ينتقض عند أبى حنيفة ؛ وعن لعب الشطرنج وأكل لحوم الخيل : حلال عند الشافعى ؟ وعن مجاوزة الحد فى التعزيزات : جائز عند مالك ؛ وعن بيع الوقف إذا خرب وتعطلت منفعته . لم يكن له ما يعمر به : حلال عند أحمد بن حنبل ، وهكذا .. أنشدتُ لبعض سفهاء الشعراء :

الشافعىُّ من الأئمةِ قائلٌ : اللعبُ بالشّطرنج غيرُ حرامِ
وأبو حنيفة قال ، وهَو مصدَّقٌ فى كل ما يروى من الأحكامِ :
شربُ المثلَّثِ والمربَّع جائزٌ فاشربْ على أمنٍ من الآثامِ
وأباحَ مالكُ الفِقاحَ تكرُّماً فى ظهرِ جاريةٍ وظهرِ غلامِ
والحبرُ أحمدَ حلَّ جَلْدَ عُميرةٍ وبذاكَ يستغنى عن الأرحَام
فاشربْ ولُطْ وازنِ وقامرْ واحتججْ فى كل مسألةٍ بقول إمام

... لقد اجترأ على أئمة المسلمين . . ومن هذه حاله يؤول والعياذ بالله تعالى إلى الزندقة[١]

استدرك السبكى على ما ذكره بقوله : « ولعل الأصل فى هذا قول أبى نواس :

أباحَ العراقيُّ النبيذَ وشربَهُ وقال : حرامان المدامةُ والسكرُ
وقال الحجازىُّ : الشرابان واحدٌ فحَلَّ لنا منْ بينِ قوليهما الخمرُ
سآخذُ من قوليهما طرفيهما وأشربُها لا فارقَ الوازرَ الوِزرُ

فهذا أبو نواس لم يقصد إلا نوعاً من المجون الذى لم يخل عنه الأدباء »[٢] وهذا الذى أوردناه يعطينا فكرة عن الفكاهة والمجون فى عصر ابن نباتة . ويفسر لنا هذه الظاهرة الأصيلة فى شعره وذاته والمعروفة لدى أدباء العصر بعامة ، ولديه بخاصة .

* * *

نخلص من دراسة الحياة الاجتماعية إلى القول إن هذه الحياة تمثل جانباً آخر هاماً من جوانب الوحدة العربية ، حتى إن الطبيعة كانت فى المصائب والنوائب تجمع بين مصر والشام وغيرهما ، وقد رأينا ذلك واضحاً كل الوضوح فيما عرضناه ، غير أننا نجد أن هذه الوحدة الاجتماعية قد ثبتت دعائمها وحدة فكرية شاملة ، قل أن نجد لها مثيلا فى التاريخ العربى والإسلامى . وهذا ما نفصله فى بحثنا القادم خلال عرضنا للحياة الفكرية فى هذا العصر .

---

(١) معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

القسم الثالث
الحياة الفكرية

نكبت الحضارة الإسلامية عندما طغى سيل التتار على آفاق الشرق الإسلامى والبلاد العربية ، فاحتلوا بغداد ، واستباحوها خلال بضعة وثلاثين يوماً سنة ٦٥٦ هـ ، وكثر عدد الضحايا ، فما أحصاهم عد .

لم يكتفوا بكل ذلك ، بل جمعوا العلماء والفقهاء والأعيان زاعمين أنهم يريدون عقد قران ابنة الخليفة ، فقتلوهم عن آخرهم . نشير منهم إلى الأستادار محيي الدين بن الجوزى الذى صرع مع أولاده الثلاثة[1] والشيخ يحيى بن يوسف الصرصرى الشاعر الضرير .

لم يكتف التتار بما ارتكبته أيديهم الآثمة . بل تطاولوا على قصور الخلفاء فأحرقوا ما فيها من الكتب النفيسة فى شتى العلوم والفنون . وروى أنهم بنوا بها بأمر هولاكو جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر[2] .

أثارت هذه النكبة النكباء قرائح الأدباء والشعراء . فنظموا القصائد النائحة فى رثاء هذه الحضارة الآفلة . نشير منهم إلى الشيخ تقى الدين إسماعيل التنوخى ، فقد أنشد قصيدة يرثى بها بغداد ، وجملة القصيدة ستة وستون بيتاً ، منها قوله :

لسائِلِ الدمعِ عنْ بغدادَ أَخبارُ ... فما وقوفُك والأَحبابُ قدْ ساروا

يا زائرينَ إلى الزوراءِ لا تَفِـدوا ... فما بذاكَ الحِمَى والدارِ ديَّارُ

تاجُ الخلافةِ والربعُ الذى شَرُفتْ ... به المعالمُ قـد عفّاه إقفارُ

أَضحَى لعطف البِلِى فى ربعِهِ أَثرٌ ... وللدموع على الآثار آثارُ

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥١ ، وتاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) المصدر السابق .

يا نارَ قلبيَ من نارٍ لحربِ وغًى ... شبَّتْ عليه ووافَى الربعَ إعصارُ
علا الصليبُ على أعلى منابرِها ... وقامَ بالأَمر من يحويهِ زُنَّارُ

ومنها :

وكم بدورٍ على البدريَّةِ[1] انخسَفَت ... ولم يَعُدْ لبدورٍ منهُ إبدارُ
وكم ذخائرَ أضحتْ وهى شائعةٌ ... من النِّهابِ وقد حازتْهُ كفّارُ
وكم حدودٍ أُقيمتْ مِنْ سيوفهمُ ... على الرقابِ وحطَّتْ فيه أوزارُ
ناديتُ والسبْيُ مهتوكٌ يجرُّهُمُ ... إلى السِّفاح[2] مِن الأَعداءِ دَعَّارُ[3]

ومنها :

وهمْ يُساقُونَ للموتِ الذى شَهدُوا ... النارُ يا ربِّ نَصْلاها ولا العارُ
يا للرِّجالِ لأَحـــداث تُحدِّثُنَا ... بما غدا فيهِ إعذارٌ وإنذارُ
مِنْ بعدِ أَسْرِ بنى العبّاسِ كُلِّهِمُ ... فلا أَنارَ لوجهِ الصبحِ إسفارُ
ما راقَ لى قطُّ شيءٌ بعدَ بينهِمُ ... إلَّا أَحاديثُ أَرويهَا وآثَارُ
لم يبَق للدينِ والدنيا وقد ذهبوا ... سوقٌ لمجدٍ وقد بانوا وقد باروا
إنَّ القيامَةَ فى بغدادَ قد وُجِدتْ ... وحدّها حينَ للإقبالِ إدبارُ
آلُ النبيِّ وأَهلُ العلمِ قد سُبُيوا[4] ... فمَنْ تَرى بعدَهم تحويهِ أمصارُ؟
ما كنتُ آملُ أَنْ أَبقَى وقد ذَهَبوا ... لكنْ أَبى دونَ ما أَختارُ أَقدارُ[5]

هكذا كان مصير بغداد ، إذ لم يبق من بنى العباس وآل النبى وأهل العلم ديار ، فلقد أصبحت قاعاً صفصفاً ، ولم ينج من الموت إلا نفر قليل ،

(١) البدرية : نسبة إلى بدر مولى المعتضد ، والمراد بها قصر المنصور .
(٢) السفاح : الزنا ، وتزوج المرأة سفاحاً أى بغير سنة ولا كتاب .
(٣) دعار : الفاجر والفاسق والخبيث .
(٤) هكذا وردت خطأ ، والصواب (سبوا) ولا يستقيم به الوزن . ولعلها مصحفة من (قتلوا) .
(٥) المصدر السابق ج ٧ ص ٥١ ، ٥٢ .

لم يكن يأمل أن يبقى بعد هذه الكارثة التى أتت على هذه المدينة ومن فيها .

أما هذا النفر المهاجر فولىّ وجهه شطر مصر والشام ، وتشوفوا من بعد إلى مدينة القاهرة التى ستحنو عليهم حنو المرضعات على الفطيم . وستنتقم لهم فى يوم قريب .

القسم الأول

بعث النهضة العربية

كانت القاهرة تنشر نورها الفكرى منذ زمن طويل ، وأصبحت أهم مركز علمى لنشر الثقافة العربية والإسلامية شرقاً وغرباً . وما كادت شعلة النور تنطفىء فى بغداد حتى حلت محلها القاهرة ، وواصلت السير بركب قافلة الحضارة العربية ، وحملت على عاتقها هذه الأمانة المقدسة ، وأوصلتها إلى شاطئ السلامة ، فأزهرت رياضها ، وآتت قطوفها اليانعة .

أما هؤلاء العلماء المهاجرون من وجه التتار ، فنشير منهم إلى الصدر البكرى[1] الذى برع فى فن الحديث ، وانتهت إليه رياسة الحديث بالديار المصرية . كما نشير أيضاً إلى ابن خلكان المؤرخ المشهور ، وإلى كمال الدين بن العديم الذى هجر مدينته حلب الشهباء فى عهد الناصر بن قلاوون فارًّا من وجه التتار ، وإلى والد ابن تيمية الحرانى الذى فر أيضاً إلى مصر ومعه ابنه ابن تيمية المشهور ، وكان آنئذ حدثاً حينما احتل التتار حلب .

جرى كل ذلك فى المشرق منذ بدأت فتوحات هؤلاء الغزاة واستمرت طويلا وفى كل مرة يهاجر فوج جديد ، سواء أكانوا فى نيسابور أم فى بغداد أم حران أم أربل أم حلب أم فى غيرها من البلاد العربية أو الإسلامية . جرى كل ذلك فى مشرق العالم العربى والإسلامى ، أما فى المغرب وبخاصة فى الأندلس العربية ذلك الفردوس المفقود فقد ضعف أمر العرب هناك ، وأصابهم الخذلان ، وفضل كثير منهم أن يرحل إلى أرض الشام أو وادى النيل ، نذكر من هؤلاء العلماء

---

(١) أبو على الحسن بن محمد النيسابورى ، ولد سنة ٥٧٤ هـ وتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

ابن دحية[١] وابن مالك[٢] وابن حيان[٣] ، ونذكر من علماء المغرب ابن منظور الإفريقى وابن خلدون وابن أبى حجلة وغيرهم كثير .

نخلص من ذلك إلى القول إن كثيراً من علماء المشرق والمغرب ، وجدوا فى مصر والشام المعقل الحصين الذى يلوذون به من شر الأعداء ، فتوجهوا إليهما وأقاموا فيهما يستفيدون ويفيدون ، فنبه شأن بعضهم ، وأصبحوا كعبة القصّاد .

أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى المراكز العلمية التى خلفت دار السلام فقال : « وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه ، بل أسواقه نافقة ، وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور ، واتصال السند فيه ، وإن كانت الأمصار العظيمة التى كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة ، إلا أن الله تعالى قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك ، وانتقل العلم منها إلى عراق العجم بخراسان ، وما وراء النهر من المشرق ، ثم إلى القاهرة وما يليها من المغرب »[٤] .

لكن التاريخ أثبت أن المركز الوحيد الذى ازدهر وبقى مع الزمن ينشر نور المعرفة والثقافة هو مركز القاهرة ولا سيما بعد أن بعثت الخلافة الإسلامية من مرقدها على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ ، كما رأينا ذلك من قبل ، وقد أشاد ابن خلدون أيضاً فى مكان آخر بمصر وحضارتها ، فذكر أنها « أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع العلم »[٥] .

نضيف إلى هذه العوامل الخارجية عوامل أخرى داخلية أسهمت فى بعث هذه النهضة العلمية الكبرى التى فاقت كل حضارة سابقة ، نشير منها بصورة خاصة إلى غيرة سلاطين المماليك وأمرائهم على الدين الإسلامى وتوقيرهم الزائد

---

(١) أبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية السبكى مؤدب السلطان الكامل ، ولد سنة ٥٤٤ هـ ، وتوفى سنة ٦٣٣ هـ . البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤٤ ، وحسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤٩ .

(٢) جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الجيانى ولد بجيان سنة ٦٠٠ هـ وتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ هـ . البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٧ .

(٣) أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان الغرناطى ، ولد سنة ٦٥٤ هـ وتوفى سنة ٧٤٥ هـ . حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٢٩ .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٢ .

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٥ .

لرجاله وقضاته . وقد دفعهم ذلك لإنشاء كثير من بيوت الله والربط والزوايا والخوانق لإقامة الشعائر الدينية تخليداً لذكراهم .

كثرت العناية بالعلوم الدينية ، وانصرف العلماء للعناية باللغة العربية والتخصص فى علومها والعناية بآدابها ، وقد أدى بهم ذلك للإكثار من إنشاء دور العلم بالإضافة إلى المساجد . وألحقت بها دور الكتب الثمينة ، واختير لها من العلماء الأفذاذ الذين يصلحون للتدريس فى الدور المذكورة .

القسم الثانى
دور العلم

كانت الدراسات الدينية وغيرها فى العصر الفاطمى مقصورة على المساجد التى كانت دور عبادة وعلم فى آن واحد . وقد أنشأ الحاكم بأمر الله الفاطمى دار العلم ، وأجاز فيها المجادلات فى المذاهب الإسلامية المختلفة ، وجرت فيها المناظرات بين رجال هذه المذاهب ، كما أعطيت فيها الحرية لرجالها لنشر تعاليمهم دون أن يمسهم أى سوء[١] .

كان صلاح الدين الأيوبى سنيًّا شافعيًّا ، وأراد تطهير البلاد من كل العقائد الشيعية الإسماعيلية ، فأنشأ مدرسته الصلاحية أو الناصرية بجوار ضريح الإمام الشافعى ، وقد دعاها السيوطى بتاج المدارس[٢] درس فى هذه المدرسة كبار علماء العصر أمثال : تقى الدين بن رزين ، وتقى الدين بن بنت الأعز ، وتقى الدين بن دقيق العيد أستاذ ابن نباتة وموجهه نحو نظم الشعر .

كما عرف عن الملك الكامل أنه أسس داراً لتدريس الحديث النبوى ، وسماها دار الحديث[٣] ، وهى ثانى مدرسة أنشئت فى العالم الإسلامى بعد المدرسة

---

(١) أدب مصر الفاطمية ص ١٠٠ .
(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٠ .
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٤٢ .

الأولى التى أنشأها فى دمشق الملك العادل نور الدين الزنكى لدراسة الحديث أيضاً[١] .

استمر الأيوبيون فى بناء دور العلم برغم قصر مدة حكمهم ، وقد ذكر أن الملك الصالح نجم الدين أيوب أنشأ مدرسة وسماها المدرسة الصالحية ، وعندما احتفل بافتتاحها أنشد أبو الحسين الجزار :

ألا هكذا يَبْنى المدارسَ مَنْ بَنَى ومَنْ يَتَغالَى فى الثوابِ وفى البِنا[٢]

جرت العادات عند افتتاح مدرسة ما أن يقام احتفال ، يحضره السلطان والأمراء والفقهاء والقضاة ، ويمد سماط للمدعوين ، وبعد انتهاء الدعوة يخلع السلطان على كل من عمل فى بناء المدرسة ، ويعين لها المدرسين والمعيدين ، ويحبس عليها الأوقاف لكى يدفع منها نفقات التدريس ، ويلحق بها دور الكتب التى تساعد الطلاب على الدراسة والبحث العلمى .

جاء عصر سلاطين المماليك ، وتنافسوا فى إنشاء المدارس . وقد كثر عددها ، حتى لقد عجب ابن بطوطة من كثرة عددها ، فذكر أنه لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها[٣] ، وقال القلقشندى : « إن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها »[٤] .

نذكر من مدارس المماليك المدرسة الظاهرية القديمة التى[٥] أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٢ هـ . والمدرسة المنصورية التى أنشأها المنصور قلاوون وألحق بها البيمارستان المنصورى ، وأمر أن يدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة . يضاف إلى ذلك درس فى التفسير ، ودرس فى الحديث ، ودرس فى الطب . ويذكر السيوطى[٦] أن الشرف البوصيرى أنشد السلطان حينما تم البناء قصيدة مطلعها :

أَنشـــأْتَ مدرسةً ومارستانا لتصحّحَ الأَديانَ والأَبْدَانا

---

(١) الدارس فى تاريخ المدارس جـ ١ ص ٩٩ .
(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٢ . (٣) رحلة ابن بطوطة جـ ١ ص ٧٠ .
(٤) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٦٨ . (٥) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٤٣ .
(٦) المصدر السابق .

ونذكر أخيراً المدرسة الناصرية[١] التى فرغ من بنائها سنة ٧٠٣ هـ ، ويذكر المقريزى أنه أدرك هذه المدرسة ، وهى محترمة إلى الغاية يحرسها عدة من الطواشية ، ولا يسمح لأى إنسان بدخولها دون استئذان . يحسن أن نشير إلى النظام المتبع فى هذه الدور العلمية الجامعة ، وهى لا تقل شأناً عن الجامعات المعروفة فى عصرنا من حيث نظم الدراسة ، وهيئة التدريس ، فإن لكل مدرسة عدداً من المدرسين والمعيدين ، بالإضافة إلى طلابها المنتسبين ، وكان رأس المدرسة الشيخ الذى رسم السلطان بتعيينه ، وكان عادة من أقدم المدرسين .

يذكر ابن دقماق خلال حديثه عن المدرسة الطيبرسية التى أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس ما نصه: « ثم وقفها مدرسة للفقهاء الشافعية والمالكية ، يجلسون — أى الشافعية — فى الإيوان الغربى . والمالكية فى الإيوان الشرقى ،ورتب من كل مذهب مدرساً ومعيداً وخمسة عشر طالباً ، وقرن الإمامة لمعيد الشافعية، والمتزلين علوها للمدرسين ، وعمر مكتباً للسبيل ، وشرط لكل مدرس ستين درهماً ولمعيد الشافعية الإمام فى كل شهر أربعين درهما ، ولمعيد المالكية فى الشهر أربعين درهماً »[٢].

كما ذكر السيوطى فى معرض حديثه عن المدرسة الصلاحية « أنها خلت من مدرس ثلاثين سنة واكتفى فيها بالمعيدين »[٣].

ما الفرق إذاً بين المدرسين والمعيدين ؟ ولكى ندرك هذا الفرق — كما كانوا يرونه قديماً — نذكر قول تاج الدين السبكى : «أما المدرس فحق عليه أن يحسن إلقاء الدروس وتفهيمه الحاضرين ، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقى عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل يدربهم ، ويأخذ بالأهون فالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق »[٤] .

أما المعيد فيذكر السبكى أيضاً قوله : « المعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس من تفهيم بعض الطلبة ، ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة ، وإلا فهو والفقيه سواء»[٥] .

---

(١) المصدر السابق .
(٢) الانتصار ج ٤ ص ٩٦ .
(٣) حسن المحاضرة ص ١٤٠ ج ٢ .
(٤) معيد النعم ومبيد النقم ص ١٠٥ .
(٥) المصدر السابق ص ١٠٨ .

بقى علينا أن نتحدث عن الطلاب ، وكان عددهم محدوداً فى كثير من الأحيان ، كما مر معنا فى المدرسة الطيبرسية ، ويدعون بالفقهاء ، فيقال مثلا فقهاء المدرسة الصلاحية ، أو فقهاء المدرسة الفاضلية ...

ينقسم الفقهاء عادة بحسب قدمهم فى الدراسة ، فمنهم الفقيه المفيد ، وعليه أن يعتمد ما يحصل فيه بالدرس فائدة من بحث زائد على بحث الجماعة[١] ، ولعله يعادل طالب الماجستير فى نظامنا الحديث ، ومنهم الفقيه المنتهى[٢] ، وعليه من البحث والمناظرة فوق ما على دونه ، ولعله يعادل طالب الدكتوراه .

أما سائر الطلاب فهم الجماعة العامة وهم يختلفون بحسب تقادم عهدهم فى الدراسة والاختصاص .

يحسن بنا أن نشير إلى مشايخ هذه المدارس ومدرسيها ، نذكر منهم عز الدين ابن عبد السلام ، ومحيي الدين النووى ، وتقى الدين بن دقيق العيد ، وتقى الدين بن تيمية ، وشمس الدين بن قيم الجوزية ، وتقى الدين السبكى وغيرهم من أفذاذ العلماء .

أما الدروس فكانت مختلفة تتناول العلوم الدينية والعربية والفلسفية والطبية وغيرها ، وكان المدرسون يتشددون فى التدريس فى بعض الأحيان ، وقد ذكر الأدفوى ذلك فى معرض قصيدة طريفة نذكرها كما أوردها ابن حجر فى درره :

إنَّ الدروسَ بمصرِنا فى عصرِنا ... طُبِتْ على لَغَطٍ وفَرْطِ عياط
ومباحث لا تنتهى لنهـــايةٍ ... جَدَلًا ونقل ظاهر الأغلاط
ومدرس يُبدى مباحِثَ كلُّها ... نَشأَتْ عن التخليطِ والأخلاطِ
ومحدث قدْ صار غايةُ علمه ... أجزاءَ يَرويها عن الدِمياطى
وفلانة تروى حديثًا عاليًا ... وفلان يروى ذاك عن أسباطِ
والفرق بينَ عَزيرهم وعزيرِهم[٣] ... وافصِحْ عن الخيّاط والحنَّاط

(١) المصدر السابق ص ١٠٨ . (٢) المصدر السابق ص ١٠٨ .
(٣) هناك محدثان عرفا باسم (عزير) هما : عزير بن أحمد الأصفهانى ، وحفيده عزير بن الربيع بن عزير .

وأبو فلانٍ ما اسمه ؟ ومن الذى بينَ الأنامِ ملقبٌ بِسِناطِ ؟
والفاضلُ النحريرُ فيهمْ دأبه قولُ أرسطاليسَ أو بِقْراطِ.
وعلومُ دينِ اللهِ نادتْ جهرةً هــذا زمانٌ فيه طىّ بساطى[1]

تلك هى الثقافة العامة فى هذا العصر ، ينال منها الطالب ما يبتغيه ، ويختص عندما يصبح فقيهاً منتهياً ببعض العلوم ، لينال الإجازة العلمية ، ويشهد العالم لطالبه أنه أتم دراسته ، وأصبح أهلا للتدريس والفتيا ، ويمنحه الإجازة العلمية ، فيذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة وغير ذلك .

نشير إلى أنواع أخرى من الإجازات العلمية عرفها أبناء العصر ، منها الإجازة بعراضة الكتب ، فيحفظ الطالب كتاباً فى الفقه أو الحديث أو الأدب أو النحو ثم يعرضه على مدرسه ، فيختبره ، فى عدة أماكن من الكتاب ، فإذا أحسن الإجابة ، ولم يخطئ فيه ، كتب له الإجازة فى ذلك ، وقال فيها : « عرض علىّ فلان ..» ، أو « عُرض علىّ وكتبه فلان» وتتوقف قيمة هذه الإجازة على شهرة الأستاذ المجيز[2] .

وأديبنا ابن نباتة كان أحد العلماء المشهورين الذين يقصدون من كل الأنحاء لنيل الإجازات العلمية ، وكان يجيز طلابه من شيوخ العصر ، كإجازته للصفدى نثراً ، أو إجازته لابن سمنديار شعراً وغيرهما من مشاهير العصر . وسوف نعرض لهذا الأمر الهام عند دراسة مكانته العلمية ومنزلته الأدبية .

القسم الثالث
الثقافة العامة فى هذا العصر

ازدهرت الحركة الثقافية فى هذا العصر ازدهاراً كبيراً ، وقد يضيق بنا البحث لو حاولنا أن نعطى حتى صورة بسيطة عن هذا العصر الزاهر الذى لم

(١) الدرر الكامنة ج ١ ص ٥٣٦ ، ومعيد النعم ص ٩٠ .
(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

تعرف له الحضارة الإسلامية مثيلا فى تاريخها، وأغرب ما فى الأمر أن يعتقد الكثيرون أن هذا العصر يمثل انحطاط الثقافة الإسلامية ، ويرمز إلى جمودها وعقمها ، كنت — مع كل الأسف — من أولئك النفر ، لكننى بما إن درست عصر الأديب الكبير ابن نباتة حتى وجدتنى أكاد أغرق فى بحر لجى من أدب جم مطوى لم ينشر ، ومن ثقافة عميقة لم تطلها يد إنسان بعد ، ولم تنفض عنها سحائب غبار السنين ، ويكفى أن أشير إلى أهم مؤلفات أديبنا الكبير التى مازالت مخطوطة لم تنشر بعد ، وقابعة فى مكتبات الغرب ، تنتظر اليد الرحيمة الآسية التى تنقذها من شقاء الغربة والبعد .

كان العلماء قديماً يؤلفون فى شتى الموضوعات لأن حيزها ضيق ، أما فى هذا العصر فقد ظهر التخصص فى التأليف ، وقد دفع ذلك السيوطى لتقسيم العلماء ضمن زمرة خاصة بحسب العلوم التى يغلب عليهم فيها التأليف ؛ ذكر من بمصر من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية ، وذكر أيضاً من كان فيها من حفاظ الحديث ، وأئمة القراءات . وأئمة اللغة والنحو والصرف ، وأرباب المعقولات ، وأشهر المؤرخين والنابهين من الشعراء والأدباء .

١

علوم الدين

اهتم العلماء بعلوم الدين من فقه وحديث وتفسير وقراءات ، فألفوا فيها من الكتب الكثيرة بحيث لم يبقوا فيها زيادة لمستزيد . وقد ساعد سلاطين المماليك علماء الدين على الانصراف للتأليف ، واستطاعوا أن يبلغوا بعلوم الشريعة مبلغاً ما عرفه المسلمون من قبل .

الفقه والفتاوى

كثر التأليف فى المذاهب الأربعة السنية ، فتناول العلماء المتون القديمة بالتوضيح والشرح ، وتعدى الأمر ذلك فشرعوا يشرحون الشروح نفسها ،

واختصروا هذه الشروح ليسهل تناولها فى الدراسة ، كما كانوا ينبهون على ما فات الشرّاح من مسائل وتعليقات

نشير من هؤلاء العلماء إلى الأئمة المجتهدين أمثال : الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء[١] ، ومؤلف كتاب « الفتاوى الموصيلة » . والشيخ شهاب الدين القرافى[٢] مؤلف كتاب « الذخيرة » ، والشيخ تقى الدين بن تيمية[٣] مؤلف كتاب الفتاوى المصرية ، والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد مؤلف كتاب « شرح العنوان » وغيرهم من الذين لا يحصيهم عد ..

يتصف أسلوب هؤلاء العلماء فى تصانيفهم الدينية بالروح المنطقية التى تسود أبحاثهم ، يضاف إلى ذلك كثرة الاحتجاج والاعتراض والتدليل والقياس، بالإضافة إلى النقد النزيه المبنى على أسس العقل والاعتدال والمنطق ، وهذا ما نلمسه جلياً أيضاً فى الحديث النبوى .

الحديث والمحدثون

ذكر السيوطى زمرة خاصة من المحدثين انفردوا بعلو الإسناد ، لكنهم لم يبلغوا درجة الحفظ أمثال غازى الحلاوى[٤] الذى أخذ عنه ابن نباتة الحديث وست الأكياس المصرية[٥] ، وفاطمة بنت عباس البغدادية[٦] ، ومحيى الدين ابن فضل الله[٧] ، أحد الذين اتصل بهم ابن نباتة . قد يكون من الحق أن ندعو هذا العصر بعصر الحديث ، وأن نشير إلى أهمية العناية بالحديث النبوى ، ويكفى أن نشير إلى أن عباقرته ظهروا بمصر والشام، وغيرهما، نشير منهم إلى ابن الأنماطى

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٦ . (٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٢٧ .

(٣) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٣٥ .

(٤) أبو محمد أبى الفضل توفى سنة ٦٩٠ هـ . انتهى إليه علو الإسناد بمصر . حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢ .

(٥) موفقية بنت وردان المصرية توفيت سنة ٧١٢ هـ . حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٤ .

(٦) فاطمة بنت عباس البغدادية توفيت سنة ٧١٤ هـ حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٤ .

(٧) يحيى بن فضل الله كاتب السر فى مصر توفى سنة ٧٣٨ هـ . حسن المحاضرة ج ١. ص ١٦٦ .

وابن دحية والنووى والصدر البكرى والدمياطى وابن دقيق العيد والتقى السبكى وشمس الدين المحدث والد ابن نباتة وغيرهم كثير .

لم يكتف المحدثون بما حفظوه من الحديث كما حفظوا كتاب الله ، بل اشترطوا على رواته الحصول على الإجازة فى روايته ، واشترطوا كذلك فى الرواية أن تكون من عالم حافظ وراوية مجاز من شيخه ، ولا تنال الإجازة فى رواية الحديث إلا بعد ملازمة طويلة للشيخ المحدّث ، وفى خلالها يحفظ الحديث ، فيجيزه شيخه برواية حديث معين عنه أو جملة من الأحاديث . أذكر على سبيل المثال الإجازة فى الحديث التى نالها ابن نباتة كما وردت فى الوافى بالوفيات للصفدى ، وهذا نصها :

« أخبرنا الشيخ عز الدين أبو العز عبد العزيز بن عبد المنعم بن على الحرانى — رحمه الله — إجازة ، أنا الشيخ أبو الفتوح يوسف بن المبارك ، قراءة عليه ، وأنا حاضر ببغداد ، أنا الشيخ أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد القزاز ، قراءة عليه وأنا أسمع ، أنا الشيخ أبو الغنايم عبد الصمد بن على بن محمد ، قراءة عليه وأنا حاضر ، قيل له : أخبركم أبو الحسن على بن عمر بن أحمد الدارقطنى ، نا محمد بن على بن إسماعيل الأيلى ، نا أحمد بن المعلى ابن يزيد ، نا حماد بن المبارك ، نا محمد بن شعيب ، نا مروان بن جناح عن هشام عن غزوة أنه أخبره عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبى (صلى الله عليه وسلم) أن رسول الله قال : إن من الشعر لحكمة »[1] .

لم تقتصر العناية على حفظ الأحاديث وروايتها ، بل كان الحفاظ يعنون بدراسة علم مصطلح الحديث ، ويهتمون بمعرفة تراجم رجاله وتعديلهم وتجريحهم .

القراءات والقراء

عنى المسلمون بالقراءات القرآنية وحسن أدائها وتأثر رسمها ، وحافظوا على ما وضعه القدماء وما اصطلحوا عليه . وقد اعتمدوا فى ذلك على ما نظمه

---

(١) الوافى بالوفيات ص ٣١٧ ، ومعنى قوله (نا) أى (حدثنا) و(أنا) أى (أخبرنا) . وهذا من أساليب الحديث النبوى الشريف .

الشاطبي [١] فى هذا العلم ، وقد أصبحت منظوماته متناً تناوله من بعده الشراح بالشرح والتوضيح .

نظم الشاطبي فى القراءات ورسم المصحف ، وهو من أصل أندلسى ، وفد على مصر ، وعمل فى التدريس فيها ، وبذلك أصبح للأندلس الفضل فى نشر هذا العلم فى ربوع المشرق .

أما القصيدتان فهما : « حرز الأمانى » والرائية ، وقد سار بهما الركبان ، فذاع صيته ، وانتهت إليه الرئاسة فى الإقراء بمصر . شرح الشاطبية كثيرون من الشراح ، نذكر منهم شهاب الدين أحمد بن يوسف الحلبى (المتوفى سنة ٧٥٦هـ) وشهاب الدين أبا شامة (المتوفى سنة ٦٦٥هـ) وشهاب الدين القسطلانى (المتوفى سنة ٩٢٣هـ) ، والسيوطى (المتوفى سنة ٩١١هـ) .

التفسير والمفسرون

أسهم علماء العصر بنصيب وافر بتفسير القرآن والتأليف حول موضوعاته ، وقد تضمنت تفاسيرهم كثيراً من شرح الأمور الدينية والمثل العليا الإسلامية .

نشير إلى كبار التفسير فى هذا العصر ، ونخص بالذكر منهم القرطبى محمد بن أحمد ، أشهر مفسرى العصر (المتوفى سنة ٦٧١هـ) ، وابن المنير الإسكندرى (المتوفى سنة ٦٨٣هـ) ، وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول : « ديار مصر تفتخر برجلين فى طرفيها ابن المنير بالإسكندرية ، وابن دقيق العيد فى قوص »[٢] ، والعلم العراقى عبد الكريم (المتوفى سنة ٧٠٤هـ) ، وابن تيمية الحرانى (المتوفى سنة ٧٢٨هـ) ، وتلميذه ابن قيم الجوزية (المتوفى سنة ٧٥١هـ) ، وتقى الدين السبكى (المتوفى سنة ٧٥٦هـ) ، وإسماعيل بن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) ....

---

(١) القاسم بن فيرة الشاطبى المقرئ الضرير ، ولد سنة ٥٣٨ هـ ، وتوفى سنة ٥٩٠ هـ . حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١٢ .

(٢) المنهل الصافى (مخطوط) جـ ١ و ١٤٧ .

لم يقتصر التأليف على تفسير القرآن وحده ، بل تعداه إلى كثير من المواضيع كأمثال القرآن وغريبه وغير ذلك .

تلك هى لمحة أتينا فيها على شرح علوم الدين ، وهى — كما رأينا — تحتل الصدارة فى الدراسات الأساسية فى ذلك العصر ، ولا نكون مغالين إذا قلنا : إن دراسة علوم اللغة العربية تكمل الدراسات الدينية .

٢

علوم اللغة العربية

اهتم علماء العصر بدراسة اللغة العربية كوسيلة من وسائل إتقان القرآن الكريم الذى أنزل بلسان عربى مبين ، وبيان لما فيه من بلاغة وإعجاز .

عقد السيوطى فصلا خاصًّا فى حسن المحاضرة ، يتضمن أسماء أئمة النحو واللغة ، ولم يشر مطلقاً إلى علوم البلاغة التى ازدهرت فى هذا العصر أيما ازدهار.

النحو والصرف

كان للدراسات النحوية والصرفية نصيب كبير من الاهتمام ، وقد تأثرت طريقة بحثها بما عرفناه لدى الفقهاء ، فوضعت المتون ، ثم شرحت ، واختصرت بعد ذلك شروحها ، واستدرك عليها ما فات ، ويكفى أن نقول إن ما بين أيدينا يجعل لهذا العصر قيمة كبرى فى هذا المضمار .

لا شك أن ابن الحاجب (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) كان من أوائل النحاة فى بلاد الشام ، وقد شرح كتاب سيبويه ، ووضع (الشافية) فى الصرف و (الكافيه) فى النحو ، وقد عنى النحاة بكتابيه فشرحوهما شروحاً كثيرة .

كما ازدهر النحو فى بلاد الأندلس ، وقد عكف علماؤه على دراسة نحو البصرة والكوفة ، فاختاروا من المذهبين مذهباً خاصًّا بهم ، وقد انتقل هذا النشاط

النحوى إلى مصر والشام حينما هاجر علماؤها لاشتداد ضغط الإفرنج عليهم .

جاء ابن مالك إلى بلاد الشام فى عهد الظاهر بيبرس ، وكان مجيئه بدء حركة مباركة نحوية فى أرض الشام ، وكان رائد ابن مالك ألا يتقيد بمدرسة معينة ، بل كان يأخذ من البصريين والكوفيين ما يراه صالحاً . ازدهرت هذه المدرسة النحوية ، فألف ابن مالك[١] الأرجوزتين الكبرى والصغرى[٢] ، وهما : « التسهيل » و « الكافية الشافية »[٣] ، وهى أرجوزة كبيرة تتجاوز ألفى بيت وقد لخصها فى ألفيته المشهورة التى أصبحت محور التأليف فى النحو والصرف فى هذا العصر .

ساعد الظاهر بيبرس ابن مالك النحوى على صلاح حاله ، بعد أن وصلته منه رسالة ، ولعله كان يود لو حضر إلى مصر ، إذ كانت فيها حركة نحوية بدأها ابن معطى صاحب الألفية والتصاريف النحوية الشهيرة[٤].

ساعد على ازدهار حركة الإحياء النحوية وفود عالم أندلسى كبير ، هو أثير الدين بن حيان[٥] النحوى ، وقد درس النحو فى مطلع حياته على نحاة أندلسيين ، وأتم دراسته وهو فى مصر ، فأخذ عن البهاء النحاس الحلبى وغيره من كبار نحاة عصره ، حتى فاق الشيوخ منهم .

هذه المدرسة التى ازدهرت فى مصر والشام على يد ابن مالك وابن معطى وابن حيان تمثل تفاعل المدارس النحوية المختلفة على يد نحاة أندلسيين وشاميين ومصريين . وقد انطبعت هذه المدرسة بطابع عربى موحد جديد ، يعد ثمرة هذا الازدهار النحوى فى هذا العصر .

---

(١) جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الجيانى النحوى توفى فى دمشق سنة ٦٧٢ هـ . البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٧ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٧ .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٧ .

(٤) يحيى بن معطى بن عبد النور ، توفى سنة ٦٢٨ هـ . البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٢٩ . مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٧ .

(٥) أثير الدين محمد بن يوسف بن حيان الأندلسى الغرناطى ولد سنة ٦٥٤ هـ وتوفى سنة ٧٤٥ هـ حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٢٩ .

يتمثل لنا ذلك فى ظهور ابن هشام المصرى الذى قال عنه ابن خلدون : « مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم ، يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه »[١] . كما أشاد بمؤلفاته وعبقريته فى مقدمته أيضاً ، فذكر عن كتابه « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » ما نصه: « وصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها ، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة ، وتكلم على المفردات والجمل ، وحذف ما فى الصناعة من المتكرر فى أكثر أبوابها وسماه بالمغنى فى الإعراب ، فوقفنا منه على علم جم ، يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ووفور بضاعته منها ، وكأنه ينحو فى طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى »[٢] .

نكتفى بما ذكره ابن خلدون عن ابن هشام، ولا بأس أن نختم حديثنا عنه برثاء ابن نباتة :

سقى ابنَ هشامٍ فى الثرى نوءُ رحمةٍ ... يجرُّ على مثواهُ ذيلَ غَمَـامِ
سأَروى لهُ مِنْ سائِرِ المدحِ سيرةً ... فمازِلْتُ أَروِي سيرةَ ابنِ هِشام[٣]

اللغة والمعاجم

عاصر اللغوى المعروف ابن منظور[٤] الإفريقى ابن نباتة ، وقد ألف أعظم موسوعة لغوية فى اللغة العربية ، هى معجمه المشهور لسان العرب، جمع فيه الصحاح للجوهرى ، وحاشيته لابن برى ، والتهذيب للأزهرى ، والمحكم لابن سيده ، والجمهرة لابن دريد ، والنهاية لابن الأثير ، وهو فى خمسة عشر مجلداً ، ويعد بحق موسوعة جامعة فى اللغة والأدب تدلنا على اتساع الثقافة العامة فى هذا العصر الذى نؤرخه .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣١ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٧ .
(٣) تورية بعبد الملك بن هشام صاحب السيرة . الديوان ٤٦٦ ، وهامش المغنى ص ٢ .
(٤) جمال الدين محمد بن مكرم ولد سنة ٦٣٠ هـ وتوفى ٧١١ هـ . حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٩ .

نذكر — بالإضافة إلى لسان العرب — معجم المصباح المنير لمؤلفه المقرى الفيومى (المتوفى سنة ٧٧٠هـ) ، ومنظومة « الإعلام بمثلث الكلام » ، وهى أرجوزة فى ثلاثة آلاف بيت لابن مالك ، ذكر فيها الألفاظ التى تختلف معانيها باختلاف حركات حروفها[١].

فنون البلاغة

يميز هذا العصر الزاهر أن علماء البلاغة تعمقوا بأبحاثهم البلاغية ، فلم يتركوا بعدهم مجالا لباحث . يحسن أن نذكر أن عبد القاهر الجرجانى (المتوفى سنة ٤٧١هـ) وصل بعلوم البلاغة إلى الذروة فى كتابيه « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » ، فلما جاء السكاكى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) وضع كتابه المشهور « مفتاح العلوم » ، وأصبح هذا الكتاب المحور الذى يدور عليه التأليف البلاغى لهذا العصر ، قام جلال الدين القزوينى (المتوفى سنة ٧٣٩هـ)، فوضع كتابه « تلخيص المفتاح » ، لخص فيه كتاب مفتاح العلوم ، ووضع كتاباً ثانياً ، شرح فيه تلخيصه السابق ، وسماه « الإيضاح » .

سلك البلاغيون نهج الجرجانى والسكاكى والقزوينى ، لكنهم انصرفوا نحو البديع انصرافاً كبيراً ، وليس من قبيل المصادفة أن يقول ابن حجة فى خزانته : « إن لكل زمان بديعاً ، تمتع بلذة الجديد »[٢]، وفى الحقيقة كان هذا العصر عصر البديع .

لا بأس أن نعود إلى الوراء قليلا لنسجل لابن المعتز (المتوفى سنة ٢٩٧هـ) الفضل فى تخصيص البديع من علوم البلاغة ، فجعلها فى سفر مستقل ، وجمع فيه سبعة من أنواعه ، عاصر ابن المعتز قدامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣٣٧هـ) ، فجمع فى كتابه « نقد قدامة » عشرين نوعاً منها ، وجاء بعده قدامة بن جعفر (المتوفى سنة ٣٣٧هـ) ، فجمع فى كتابه « نقد قدامة » عشرين نوعاً منها ،

---

(١) عصر سلاطين المماليك جـ ٣ ص ١٥٧ .

(٢) خزانة الأدب ص ٥ .

وجاء بعده أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين (المتوفى سنة ٣٩٥هـ) ، فجمع منها سبعة وثلاثين نوعاً ، وجاء بعده ابن رشيق القيروانى (المتوفى سنة ٤٥١هـ) ، فجمع مثلها فى كتابه « العمدة» ، وجاء التيفاشى بعده ، فجعلها سبعين نوعاً.....

هكذا ازدادت الأنواع البديعية تدريجيًّا ، وجاء الشعراء ينظمون البديعيات وهى قصائد فى مدح النبى (صلى الله عليه وسلم) بحرها البسيط ، ورويها الميم؛ ولعل سبب اختيارهم لحرف الميم هو اقتداؤهم بالبوصيرى فى بردته المشهورة، نذكر من هؤلاء الشعراء أصحاب البديعيات الصفى الحلى (المتوفى سنة ٧٥٠هـ) صديق ابن نباتة الحميم ، وقد نظم بديعيته ، فجمع فيها من أنواع البديع مائة وأربعين نوعاً فقط . سار كثير من الشعراء على هذا المنوال ، وأصبح فن البديعيات مظهراً من مظاهر الشعر فى هذا العصر . وكانت خزانة الأدب لابن حجة الحموى ثمرة عصر البديعيات .

لم يقف الأمر عند البديع فحسب ، بل تعداه إلى التخصص فى بعض فنونه ؟ والجدير بالذكر أن أديبنا ابن نباتة اهتم بالتورية ، ويكفى أن نشير إلى أن مدرسة التورية ، أو مدرسة السحر الحلال — كما يحلو لى أن أدعوها مع ابن حجة — هى التى لعبت دورها فى شعر هذا العصر .

وقد ظهرت حركة أدبية بسبب هذا الأمر بين الصفدى المولع بفن الجناس وبين أستاذه ابن نباتة صاحب المدرسة الرمزية ، مدرسة السحر الحلال ، وسنعرض لهذه الحركة المباركة فى مكانها من هذا البحث.

ألف الأدباء المعاصرون فى هذه الفنون البديعية كثيراً من المؤلفات ، نذكر منها : « فض الختام فى التورية والاستخدام » و« جنان الجناس » للصفدى ، و« كشف اللثام عن وجه التورية والاستخدام » لابن حجة الحموى ، و « رائق التحلية فى فائق التورية » لابن خاتمة .

نكتفى بهذا القدر من حديث البلاغة وبديعها وسنعود لبحثها عند دراسة شعر ابن نباتة ، فنجلى خصائصها ، ونهتك أستارها ، لعلنا نستطيع أن نبرز هذا العصر البديع فى زمن البلاغة والبديع .

العروض والقوافى

أما العروض والقوافى فقد أسهم أدباء العصر فى التأليف حوله ، نذكر كتاب « العروض » لابن مالك النحوى ، و« القوافى » لبدر الدين الدمامينى (المتوفى سنة ٨٢٧) ، و « شفاء الغليل فى علم الخليل » لأمين الدين المحلى (المتوفى سنة ٦٧٣هـ) وغير ذلك من المؤلفات العروضية .

هذه لمحة خاطفة عن علوم اللغة العربية ، عرضنا فيها بشكل عام لكل مظاهر نشاطها، ولعلنا استطعنا أن نلمح من خلالها النهضة المباركة التى شملت معها العلوم التاريخية والاجتماعية .

٣

العلوم التاريخية والاجتماعية

ازدهرت الدراسات التاريخية ، ونضجت العلوم الاجتماعية ، وألفت الكتب الكثيرة لدراسة البلدان والأقاليم والظواهر الطبيعية المختلفة .

الدراسات التاريخية

أما التاريخ فقد شهدت مصر والشام أعظم الاهتمام بدراسته ، ولا نعرف فى التاريخ الإسلامى عصراً كثر فيه التأليف فى هذا الموضوع كما نراه الآن من دراسات تاريخية دقيقة تتناول حتى الحوادث اليومية بحسب الأيام والأعوام .

ولم يقتصر الأمر على هذه الدقة ، بل تعداه إلى تنوع فى مختلف الدراسات التاريخية ، فمنهم من اختص بتاريخ تراجم الأعلام ، نذكر منهم ابن خلكان (المتوفى ٦٧١هـ) فى كتابه « وفيات الأعيان » . وقد احتوى على ثلثمائة ترجمة ، تضم تراجم بعض معاصريه من رجال القرن السابع الهجرى .

وجاء بعده ابن شاكر الكتبى (المتوفى سنة ٧٦٤هـ) فوضع تاريخاً متمماً ،

سماه « فوات الوفيات » ، يحتوى على تراجم رجال القرن الثامن ، وجاء بعده صلاح الدين الصفدى (المتوفى سنة ٧٦٤هـ) ، فاقتدى بهما فى كتابه « الوافى بالوفيات » .

هذا مثال أوردته فى ذكر تراجم الأعلام ، نستدل منه على تكاتف المؤرخين فى عملهم ، فكل يتمم ما فعله سابقوه ، ويعد بحق هذا خير صفة مميزة من صفات التعاون العلمى فى الدراسات العالية لدى أبناء هذا العصر .

ومن المؤرخين أيضاً من اختص بدراسة أقاليم معينة أو مدن معينة ، نشير إلى القطب الحلبى (المتوفى سنة ٧٣٥هـ) فى كتابه « تاريخ مصر » ، ولأبى شامة (المتوفى سنة ٦٦٥هـ) فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، وللمقريزى (المتوفى سنة ٨٤٥هـ) فى « خططه » و« سلوكه » ، ولابن تغرى بردى (المتوفى سنة ٨٤٥هـ) فى « نجومه الزاهرة » وغير هؤلاء كثير .

ومن المؤرخين من كتب فى التاريخ العا نشير منهم إلى الملك المؤيد أبى الفداء (المتوفى سنة ٧٣٢هـ) فى كتابه « المختصر فى أخبار البشر » ، ولابن كثير (المتوفى سنة ٧٧٤هـ) فى كتابه « البداية والنهاية » ، ولابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨هـ) فى كتابه « العبر » .

الدراسات الاجتماعية

يحسن بنا أن نشير إلى الدراسات الاجتماعية التى سبق بها ابن خلدون علماء الاجتماع المحدثين . والجدير بالذكر أن مقدمته الهامة احتوت على كثير من النظريات الاجتماعية التى تنسب إلى غيره من علماء الاجتماع المحدثين الذين جاءوا بعده بزمن مديد .

علم الأقاليم وتقاويم البلدان

لابد لنا ، ونحن فى ختام الدراسات التاريخية والاجتماعية، من الإشارة إلى علم الأقاليم وتقاويم البلدان ، إذ نشط فى هذا العصر مثل هذه الدراسات ،

وننوه بشكل خاص بأبي الفداء صاحب كتاب « تقويم البلدان » وهو كتاب فريد فى نوعه ، لأن مؤلفه يتناول فى بحثه الجغرافية العامة ، ويصف الأرض والأقاليم ، ويتحدث عن خطوط العرض والطول .

كما نشير أيضاً إلى كتاب آخر لشهاب الدين بن فضل الله (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) يتعلق بدراسة البلدان والأمصار ، وهو كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » يعد موسوعة جغرافية عامة فى أكثر من عشرين جزءاً ، وقد ذكر فى الجزء الأول أن الشيخ أبا الثناء محمود بن أبي القاسم الأصفهانى (المتوفى سنة ٧٤٩هـ) ، نزيل مصر تنبأ بوجود القارة الأمريكية قبل أن يكتشفها كريستوف كولومبس بقرن ونصف القرن تقريباً . يقول ابن فضل الله : « لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفاً من الجهة الأخرى ، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة ، لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى »[١] .

نخلص من هذه الدراسات إلى القول إن العلماء بلغوا مرحلة عظيمة من التقدم ، ويكفيهم أنهم وضعوا أسس علم الاجتماع الحديث على يد ابن خلدون وأنهم عرفوا أمريكا قبل أن يعرفها الغربيون . وفى هذا أكبر دلالة على ما يمتاز به هذا العصر من نضج وازدهار وعمران .

٤

العلوم العقلية والعملية

لم تنل العلوم العقلية إلا نصيباً ضئيلا من العناية ، ولعل الطب هو العلم العملى الوحيد الذى كان الاهتمام منصبًّا عليه لما له من علاقة وثيقة بحياة الناس ، وسبق لنا أن ذكرنا تأسيس المارستان المنصورى بجانب المدرسة المنصورية .

---

(١) مسالك الأبصار ، ص ٣١ .

وبدئ فيه بتدريس الطب وقد قسم إلى أقسام خاصة بحسب الأمراض التى تعالج فيه . أشهر الأطباء ابن النفيس [١] شيخ الطب للديار المصرية ، وشمس الدين محمد مدرس الطب بجامع ابن طولون ، وابن صغير [٢] أعجوبة الدهر فى هذا الفن، وقد انتهت إليه رئاسة الطب بمصر، وشمس الدين المصرى [٣] مدرس الأطباء بجامع ابن طولون .

لم يقتصر الأمر على الأطباء ، بل توجه الاهتمام نحو المهندسين ، فقد كثر عددهم لحاجة البلاد للرى والبناء ، نذكر منهم مثلا المعلم شمس الدين الطولونى كبير المهندسين فى عهد برقوق .

أما سائر العلوم العقلية الأخرى فيندر أن نجد متخصصاً بها ، بل كان معظمهم يتناول جلّ هذه العلوم بالدراسة ، فلا يقتصر على الإلهيات ، وإنما يتعداها إلى غيرها ، كعلم الهيئة والهندسة والحساب والفلك .

وممن برع فى ذلك ابن الشاطر الدمشقى [٤] فقد أتقن هذه العلوم كلها ، وحل الزيج ، فمهر فى ذلك كل المهارة ، وروى عنه أنه كان يرصد الكواكب ويراقب تحركها بآلة رصد بديعة ، صور فيها الأفلاك والكواكب ، يذكر ابن تغرى بردى أن زيجه كان المعوّل عليه لدى الفلكيين فى دمشق والقاهرة ، ذلك لأنه انفرد فيه بمسائل متناثرة لم يسبق إليها .

نشير فى ختام حديثنا إلى بعض العلماء ، فنذكر شمس الدين الأصفهانى [٥] وقد كان بارعاً فى الأصلين والمنطق والجدل ، وألف فيها كتاباً سماه « القواعد » .

---

(١) علاء الدين على بن أبى الحزم القرشى (المتوفى سنة ٦٨٧ هـ) . حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٣ .

(٢) علاء الدين بن عبد الواحد بن محمد (المتوفى سنة ٧٩٦ هـ) . المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٥ .

(٣) شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ) . المصدر السابق .

(٤) على بن إبراهيم المعروف بابن الشاطر (المتوفى سنة ٧٧٧ هـ) . المنهل الصافى (مخطوط) ج ٢ و ٣٨٢ .

(٥) شمس الدين محمد بن محمود الأصفهانى (المتوفى سنة ٦٢٨ هـ) . حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٣٥ .

ومنهم أيضاً الصفى الهندى[١]، وقد رحل من الهند وأقام بمصر ودمشق ، وجمع بين الفقه والمنطق وغيرهما من العلوم .

القسم الرابع

الحركة الأدبية

أحاول أن أعرض لهذه الحركة الأدبية المباركة فى نطاق حديثى عن النهضة الفكرية فى هذا العصر ، ولعلى أحسن صنعاً لو جليت تيار هذه الحركة المباركة التى عرفها هذا العصر الزاهر ، فنبحث فى الخطابة والكتابة الديوانية بما فيها التوقيع . ونختم كلامنا بالتحدث عن المذاهب الشعرية .

الخطابة الدينية

ليس فى الخطابة من جديد نسجله لأبناء هذا العصر ، ونكتفى بالقول هنا : إن الخطابة الدينية قد طبعت بطابع تقليدى واحد . فكانت بعيدة كل البعد عن الابتكار ، ويكفى أن نتصفح كتاب أديبنا ابن نباتة « ديوان خطب جُمعية » لنعرف أن الخطابة حافظت على شكلها الدينى . وقد ألف هذا الكتاب على عدد أسابيع السنة ، ويختص كل أسبوع بإحدى المناسبات الدينية الخاصة فيدور موضوع الخطبة حولها .

٢

الكتابة الديوانية والوجدانية

ازدهرت كتابة الإنشاء الديوانى ، وتطورت بصورة خاصة فى دواوين سلاطين المماليك ، وكانت تدور حول كتابة الرسائل السلطانية وكتابة التوقيع . وقد

---

(١) صفى الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (المتوفى سنة ٧٥٠ هـ) . المصدر السابق جـ ١ ص ٢٣٤ .

كان ابن نباتة أحد هؤلاء الموقعين فى مصر والشام .

أما الرسائل السلطانية فكانت موضوعاتها متعددة ، تكتب باسم الخليفة العباسى ، أو الملك الأيوبى ، أو السلطان المملوكى ، بشأن تقليد الحكم أو تعيين وزير أو أمير أو قاض أو غير ذلك . وطريقة هذه الرسائل هى طريقة القاضى الفاضل (المتوفى سنة ٥٩٦هـ) [١] . ولا بأس أن نورد نصًّا من إنشائه بعثه من مصر إلى الملك العادل بدمشق ، يحثه فيه على قتال الإفرنج ، وهذا نص بعض فقرات منه : « هذه الأوقات ، التى أنتم فيها عرائس الأعمار ، وهذه النفقات التى تجرى على أيديكم مهور الحور فى دار القرار ، وما أسعد من أودع يد الله ما فى يديه ، وتلك نعم الله عليه وتوفيقه الذى ما كلّ من طلبه وصل إليه ، وسواد العجاج فى هذه المواقف ، ما سودته الذنوب من الصحائف ، فما أسعد تلك الوقفات ، وما أعود بالطمأنينة تلك الرجعات »[٢] .

تمتاز الرسائل الديوانية بأسلوب خاص ، فهى تبدأ بالبسملة والحمدلة ، ثم تعرض فيها الموضوعات الخاصة من إنشائها ، ثم تنتهى بالحمد والدعاء . ولعلى أحسن صنعاً لو أوردت نصًّا آخر ، يوضح ما قلته ، ويكون من الكتابة الديوانية فى عصر سلاطين المماليك .

أما هذا النص الآخر فهو من إنشاء القاضى فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء ، وقد صعد على المنبر بعد ما جلل بثوب حرير أطلس أصفر ، فقرأ تقليد الخليفة العباسى للظاهر بيبرس سنة ٦٥٩ هـ ، ونصه بعد البسملة والحمدلة :

« وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً فى تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدماً ، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومتهماً ، وما بدت يد من المكرمات إلاّ كان لها زنداً ومعصماً ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً وأجراه دما . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولى السلطان الملكى

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ص ٢٤ .

(٢) السلوك جـ ١ ص ٤٥٢ – ٤٥٤ .

الظاهر الركنى شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الإمامى المستنصرى أعز الله سلطانه ، تنويهاً بشريف قدره ، واعترافاً بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره ، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان من محاسن وإحسان ، وأعقب دهرها المسىء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها ، وقد كان صال عليها صولة مغضب .... وأمير المؤمنين يشكر الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فرداً ....»[1] .

يدلنا هذا النص الهام الذى بين يدينا على طريقة الكتابة الديوانية ، وهى كما نرى — تهتدى بهدى القاضى الفاضل من تسجيع وتنسيق فى أفكار التقليد وأسلوبه ، لكن مراعاة هذه الأمور لم تكن لتفقد النص أهميته ، بل كان هذا أسلوب العصر ، ولكل عصر أسلوب .

إلى جانب هذه الكتابة الديوانية مظهر آخر من مظاهر الكتابات الإخوانية والوجدانية . وتهمنا هذه الكتابات لأنها التعبير الحقيقى عن أعماق النفس الإنسانية نشير منها إلى القاضى الفاضل فى كتاب بعث به إلى ابن الزكى ، يصف له غضب الطبيعة وخوف الناس وقيامهم للصلاة يبتهلون إلى الله أن يفرج الغمة ، ويكشف الكربة . يقول القاضى الفاضل : « أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة ، وبروق خاطفة ، ورياح عاصفة ، فقوى الجو بها ، واشتد هبوبها .. ثارت السماء والأرض عجاجاً ، حتى قيل إن هذه على هذه قد انطبقت ، ولا يحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد ، وعدا منها عاد ، وزاد عصف الريح إلى أن أطفأ سرج النجوم ، ومزقت أديم السماء ومحت ما فوقه من الرقوم، فكنا كما قال تعالى : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق » ، ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق ، لا عاصم لخطف الأبصار ، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار ،

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٤ .

وفرّ الناس نساء ورجالا وأطفالا ، ونفروا من دورهم خفافاً وثقالا ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فاعتصموا بالمساجد الجامعة ، وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة ، ووجوه عاتية ، ونفوس عن الأهل والحال سالية ...»[١] .

أكتفى بهذا القدر مما اخترته من رسالة القاضى الفاضل ، وهى تمتاز — بالإضافة إلى صفات أسلوبه المميزة — بالفكرة الإصلاحية . فذكر فيها معاقل الاستغفار ، وكأنما يشير إلى ما ذكرناه من مفاسد خلال دراستنا الحياة الاجتماعية .

كان معظم المنشئين يهتمون بالكتابات الإخوانية الوجدانية ، وقد كانت الكتابات الديوانية حلبة سباق ، يتبارى فيها الكتبة والمنشئون ، فكثرت فيها المؤلفات ، إذ روى أن مسوّدات رسائل القاضى الفاضل لو جمعت لبلغت مائة مجلدة[٢] .

أصبح للكتابات الديوانية أسلوبها الخاص[٣] ، ويدلنا هذا على مبلغ تقدمها واطرادها ، ويكفى أن أشير إلى كتاب « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » الذى ألفه القلقشندى لنعرف التطور الكبير الذى طرأ على كتابة الإنشاء فى هذا العصر .

٣

المدارس الشعرية المعاصرة

لعل تطور الحياة وتعقدها فى هذا العصر قد أفسح المجال أمام الشعر ، ليتطور بدوره . ويتعقد بعد أن لبث فى ثوبه التقليدى حيناً من الدهر . وكأنما أراد أن ينطلق من ربقة القافية التى أخذت بخناقه وشدت وثاقه ، فما استطاع

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٣ . (٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٢ .
(٣) صبح الأعشى جـ ١ ص ١٣٠ .

منها الإفلات . لكنه ما كاد يتنسم حريته ، حتى ضل وأوشك أن يتعثر بما استحدثه من مذاهب شعرية جديرة أن نقف حيالها لنعرف طيبها من خبيثها .

مدرسة الأغراض التقليدية

كانت قافلة هذه المدرسة تسير فى طريقها المعهود لا يضنيها الكلل ولا يجهدها السأم والملل ، فالهيكل العام مازال معدًّا لدى الشعراء ، ولا يستطيعون أن يخلوا بعمود الشعر العربى ، لذلك نجد الشعراء العرب بالمشرق قد حافظوا — فى معظم الأحيان — على ما ورثوه من إرث شعرى خالد . أما الشعوب الأخرى فى المغرب والأندلس فقد حاولت أن تتحرر من هاتيك القيود . فكان بدء ثورة تحررية فى الشعر العربى ، على أننا قد نتساءل ما مدى النجاح الذى أحرزته فى هذا الإفلات من ضروب الوزن حيناً والقافية حيناً آخر وإهمال أمور النحو فى كثير من الأحيان .

نترك هذا الأمر لنتحدث عنه فى مكانه من هذا البحث . ونقتصر على القول هنا : إن الشعر التقليدى حافظ لدى معظم الشعراء على طابعه الأصلى وهو الكلام الموزون المقفى ، لكن بعض معانيه قد تطورت مع الزمن لتباين الأحوال وتفاوت الأقاليم .

يحسن بنا أن نشير هنا إلى المدائح النبوية التى كانت من الأغراض الجديدة المستحدثة فى هذا العصر ، وهى فن قائم بذاته ، ظهر فى أواخر العصر الأيوبى وأوائل عصر المماليك . ولابد لظهوره من عوامل ساعدت على نموه وازدهاره .

* * *

لعل الحياة الاجتماعية السائدة ، وما فيها من فقر وحرمان ، كانت من العوامل التى أدت إلى ظهوره ، يضاف إلى ذلك الوضع الاقتصادى السيىء الذى كانت الأقاليم ترزح تحت وقره ، واضطراب الحياة السياسية فى معظم الأحيان بسبب النزاع بين السلاطين والأمراء ، أو وقوع خطر من قبل الأعداء فى الشرق والغرب .

هذا مع ما كان يحدث من كوارث طبيعية تحل بالبلاد ، فيهرع الناس إلى معاقل الاستغفار يتوبون إلى الله ، ويتشفعون بالرسول الكريم .

أدت هذه العوامل إلى لون من ألوان التوكل والاستسلام الكلى لما تأتى به المقادير . والجدير بالذكر هنا أن الناس بدأوا منذ العصر الفاطمى يتشفعون بالنبى ، ويهرعون إلى أئمة الفاطميين ودعاتهم ، فلما جاء العصر الأيوبى اقتصر الناس على اللجوء إلى الرسول ، يتوسلون إليه كى يفرج عنهم الكرب ، ويكشف عنهم الغمة . حاول الخلفاء الفاطميون وسلاطين الأيوبيين والمماليك بدورهم أن يشاركوا الناس فى هذا الاتجاه الدينى ، فاهتموا بالحج ، واتخذوا له طريقاً جديداً ، يمر بالصعيد على طريق النيل ، ومنها إلى ثغر عيذاب ، فالبحر الأحمر ، ويعودون بعد ذلك من الطريق نفسه ، لقد سلكوا هذا السبيل بعد أن هدد الصليبيون مراراً طريق العقبة وبرزخ سيناء . لم يكتف المماليك بذلك ، بل ظهرت المحامل ، وما يرافقها من احتفالات دينية فى الذهاب والإياب . كل ذلك كان يضفى على الحج طابعاً ساحراً ، أخذ بأفئدة الشعراء ، فنظموا شعراً يفيض بالأحاسيس الوجدانية الصادقة التى تصور خير تصوير نفسية هذا الشعب المؤمن .

يجب ألا يغيب عن أذهاننا التصوف وما له من أثر فعال فى نشوء المدائح النبوية . ولعل قوة هذا الفن ناتجة عما نسج حول البردة النبوية من حكايات وأساطير .

أحب أن أقف عند الوزير « بهاء الدين بن يوحنا » الذى تولى منصب الوزارة فى عهد الظاهر بيبرس سنة ٥٦٩ هـ ، وقد اشترى هذا الوزير مكان الآثار النبوية المطل على بحر النيل ، واشترى أيضاً الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال ، وأودعها فى ذلك المكان[1] ، ولعل البردة النبوية من جملة هذه الآثار .

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٩٩ .

توافد الناس زرافات ووحداناً على هذا المكان النبوى المقدس الذى أنشأه الوزير بهاء الدين ، فقد روى عنه أنه اهتم كثيراً بأمر هذه البردة .

هذه العوامل أدت إلى ازدهار المدائح النبوية ، ويكفى أن نشير إلى صاحب البردة البوصيرى للدلالة على ما كان لهذا الأثر النبوى الخالد من دافع للشعراء على نظم هذه المدائح ، بل إن بعضهم سخّر حتى علم البديع فى نظم البديعيات ، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

أما ابن نباتة فكان أشد هؤلاء الشعراء الذين كانوا يلوذون بالمدائح المذكورة كلما اشتدت عليهم الحياة ، فكان يجد التشفع بالنبى خير ملاذ ، ينسيه آلامه وأشجانه .

نترك هذه المدائح جانباً لنتحدث عن سائر الأغراض الأخرى التى استحدثت أو تطورت ، فنشير منها إلى النسيب والغزل والخمرة . ونقرر هنا أن المعانى لم تحتفظ بطابعها التقليدى ، بل أخذت معانى الغزل تنصب حول وصف النساء التركيات والتحدث عن عيونهن الضيقة ، مما لم نعهده فى الشعر العربى من قبل ، ويظهر لنا ذلك فى شعر ابن نباتة . كما أن الحديث لم يكن مقصوراً على وصف الخمر والتغنى بذكرها ، بل تعداها إلى غرض حديث خبيث ، هو الاستعاضة بالحشيش عنها ، وتفضيله عليها فى معظم الأحايين ، وسبق لنا أن عرضنا لذلك فى حديثنا عن المتصوفة وعن حشيشهم المعروفة بحشيشة الفقراء .

لم يكن التطور الشعرى مقتصراً على الأغراض ، بل تعداها إلى الأساليب واستخدام البديع بصورة لم نعهد لها مثيلا فى شعرنا العربى من قبل ، ولم يقتصر الأمر على البديع نفسه ، بل تجاوزه إلى التوريات ، فاقتصر عليها من هذا الفن وحده ، ولهذا فنحن سنقدم الآن على بحث هذا المذهب الرمزى الجديد ، وهو بحق المذهب السائد فى هذا العصر بعد طغيان مذهب التطبيق والتجنيس فى القرن السادس الهجرى .

مدرسة التورية البديعية

لعل ظهور هذه المدرسة يرجع لأسباب دينية ، تتعلق بتأويل المشتبهات من كلام الله تعالى وحديث رسوله الكريم وصحابته الكرام ، وهذا يؤيد الرأى القائل بأثر المذاهب الدينية ، وأثر العقل والمنطق فى ظهور هذه المدرسة البلاغية الجديدة التى تطورت إلى المذهب الرمزى .

قال الزمخشرى : « ولا نرى باباً فى البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع ولا أعون على تعاطى تأويل المشتبهات »[١] .

كان القدماء لا يأبهون للتورية إلاّ إن وقعت لهم عفواً ، نشير من هؤلاء إلى النابغة وعمرو بن كلثوم وعنترة ، ونقف قليلا عند شعراء العصور العباسية كأبى نواس والبحترى ، ونحط الرحال عند أبى العلاء ، إذ استخدموا التورية بكثرة ، وعقدوا فيها ، لكنهم لم يتخذوها مذهباً خاصًّا بذاته .

أما فى هذا العصر فقد اتخذها الشعراء مذهباً شعريًّا خاصًّا وأصبح هذا المذهب السحر الحلال الذى يجب أن يتحلى به كل شاعر ، وإلاّ عدّ مقصراً عن أقرانه .

يمكننا أن نجد فى هذه المدرسة مذهبين ، ظهر المذهب الأول فى مصر على يد القاضى الفاضل ، وظهر المذهب الثانى فى بلاد الشام على يد شيخ الشيوخ الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى .

المذهب المصرى

كان القاضى الفاضل قطباً من أقطاب مدرسة الكتاب الفاطميين ، لكنه استقل عن هذه المدرسة ، وبدأ مدرسة خاصة ، قصرت همها على الإكثار فى الشعر والنثر من التورية والجناس . وقد قال ابن حجة إن القاضى الفاضل

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٤٠ .

عصر سلافة التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودعه منها فى نظمه ونثره[١] أما رواد هذه المدرسة من الشعراء فنشير منهم إلى القاضى السعيد هبة الله بن سناء الملك[٢] ، والأسعد بن مماتى[٣] ناظر دواوين صلاح الدين ، والسراج الوراق [٤] ، وأبى الحسين الجزار[٥] ، ومحيى الدين بن عبد الظاهر[٦] وغيرهم من شعراء المذهب المصرى فى التورية .

استخدم هؤلاء الشعراء صناعاتهم وألقابهم فى توريآتهم ؛ وقد أورد ابن حجة كثيراً منها ، يؤيد ما أذهب إليه أنه قيل يوماً للسراج الوراق : « لولا لقبك وصناعتك لذهب نصف شعرك »[٧] .

تطورت التورية على يد ابن نباتة المصرى ، لأنه حاول أن ينشئ مذهباً جديداً ، يجمع فيه شمل المذهبين المصرى والشامى .

* * *

المذهب الشامى

ظهرت مدرسة التورية أيضاً فى بلاد الشام . وكان رائد المذهب الشامى شيخ الشيوخ الصاحب شرف الدين عبد العزيز الأنصارى[٨] ؛ وقد قال

---

(١) الخزانة ص ٢٤٠ .

(٢) أبو القاسم هبة الله بن الرشيد جعفر بن سناء الملك (المتوفى سنة ٥٥٠ هـ) . حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٣ .

(٣) الأسعد بن الخطير مهذب بن مماتى المصرى (المتوفى سنة ٦١٦ هـ) . حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٢ .

(٤) السراج الوراق (المتوفى سنة ٦٩٥ هـ) .

(٥) جمال الدين يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد (المتوفى سنة ٦٧٩ هـ) . حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٦) محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان (المتوفى سنة ٦٦٢ هـ) . حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤٥ ، والبداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٤ .

(٧) الخزانة ص ٢٤٤ .

(٨) شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى (المتوفى سنة ٦٦٢ هـ) . انظر ترجمته المفصلة فى كتابنا « الأدب فى بلاد الشام » ص ٣٢٣ — ٣٥٥ .

فيه صلاح الدين الصفدى : « لا أعرف فى شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن منه ، ولا أجزل ، ولا أفصح ، ولا أسرى ، فإن له فى لزوم ما لا يلزم مجلداً كبيراً وما رأيت له شيئاً إلا وعلقته ، لما فيه من النكت والتوريات الفائقة »[١] .

كما أعجب به ابن حجة فقال : « انتهى ما أوردته من الحلاوات القاهرية ، وقد تعين أن أفكه المتأمل بعد ذلك بالفواكه الشامية ، وأقتطف له من فروع شيخ الشيوخ ما يظهر به مزية الثمرات الحموية ، وقدرة السلطنة فى الأدب وناهيك بالسلطنة الشيخية ، فاخترت من أبيات قصائده ومواصيل مقاطيعه ما يحلو بها التشبيب ، وسميته زاوية شيخ الشيوخ علماً بأنها زاوية يتأهل بها الغريب »[٢] .

خلف الأنصارى القاضى الفاضل ، وكان كل منهما يمثل مذهب التورية فى بيئته ، ولكل من المذهبين صفات متميزة خاصة أخذ بها شعراؤها نشير منهم إلى الأمير مجير الدين بن تميم[٣] ، وبدر الدين بن لؤلؤ الذهبى[٤] ، ومحيي الدين بن قرناص الحموى ، وشمس الدين بن العفيف[٥] الملقب بالشاب الظريف ، وسيف الدين بن[٦] المشد ، والوداعى[٧] من رواد هذا المذهب الشامى .

عاصر ابن نباتة أقطاب هذه المدرسة عندما ألقى عصا الترحال فى بلاد الشام ، وكان الشاعر الأكبر الذى أنشأ مذهباً رمزياً يجمع مميزات المذهبين اللذين أتينا على ذكرهما بإيجاز ، فقد تذوق الحلاوات القاهرية ، واقتطف الفواكه الشامية وموعدنا معه فى بحث شعره .

---

(١) تاريخ حماة ص ١٣٣ . (٢) خزانة الأدب ص ٣١٤ .
(٣) مجير الدين بن تميم (المتوفى ٦٨١ هـ) الخزانة ص ٢٧٦ .
(٤) بدر الدين بن لؤلؤ الذهبى (المتوفى سنة ٦٨٠ هـ) الخزانة ص ٢٧٦ .
(٥) الشاب الظريف شمس الدين بن العفيف (المتوفى سنة ٦٨٧ هـ) .
(٦) سيف الدين بن المشد (المتوفى سنة ٦٥٥ هـ) .
(٧) على بن المظفر الكندى المشهور بالوداعى (المتوفى سنة ٧١٦ هـ) .

مدرسة الفكاهة والمجون والتحامق

ظهرت طلائع هذه المدرسة الفريدة فى نوعها منذ وقت مبكر ، وأول ما وصلنا من شعرها يعود لأبى الرقعمق[١] صاحب المجون والنوادر ، وقد وفد إلى مصر ومدح العزيز بالله يعقوب بن كلس ، والأمير تميماً وغيرهم .

ومن شعرائها أيضاً صريع الدلاء[٢] ، ويلقب بقتيل الغوانى ، وهو شاعر مشهور له مقصورة فى الهزل عارض بها مقصورة ابن دريد إذ يقول فيها :

وألفُ حملٍ مِنْ مَتاعِ تُسْتَرِ[٣] أنفعُ للمسكين مِنْ لَقْطِ النَّوَى
مَنْ طبَخ الديكَ ولا يذبحُهُ طارَ مِن القِدْرة من حيثُ انتهى
مَنْ أُدخلتْ فى عينِـهِ مَسلَّةٌ فسلْهُ مِنْ ساعتِه : كيف العَمَى ؟
والذقنُ شَعْرٌ فى الوجوه طالعٌ كذلك العَقْصةُ من خلفِ القَفَا

وختمها بهذا البيت الطريف :

منْ فاتَه العلمُ وأخطاه الغِنَى فذاكَ والكلبُ على حدٍّ سَوَا

قدم هذا الشاعر إلى مصر ، ومدح صاحبها .

أما هدف هذه المدرسة فإنها ترى أن الشعر يجب أن تكون غايته الإمتاع والإضحاك . فى سبيل ذلك تعمد لقدامى شعراء الجاهلية والإسلام ، فتعارض عيون قصائدهم ، وتحرفها ، وتبدل بعض ألفاظها بحيث تصبح مضحكة مملوءة بالطرفة والفكاهة . كما كانت هذه المدرسة تستخدم الألفاظ البذيئة ولا تتورع عن ذكر أسماء الأعضاء الجنسية وما يدور حولها ، وقد ظهر هذا

---

(١) أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى (المتوفى سنة ٣٩٩ هـ) . حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٤١ .

(٢) أبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) . المصدر السابق .

(٣) تستر : بالضم ثم السكون وفتح التاء الأخرى ، وهى أعظم مدينة بخوز ستان .

التطور فى هذا العصر وبخاصة فى شعر ابن حجاج الذى كان نسيج وحده فى هذا الباب الغريب ، وقد قال ابن نباتة : إن أشعاره أمة غريبة تبعث وحدها. ولسوف نعرض لهذا الأمر خلال دراسته ، لأنه جمع له قسماً كبيراً من شعره فى مجموعة خاصة أسماها (تلطيف المزاج من شعر ابن حجاج) ، ولو تصفحنا ما جاء من مقطوعات شعرية فى باب الفكاهة والمجون عند ابن نباتة لرأينا أنه يجارى ابن حجاج فى هذا المضمار الفريد ، وقد يتفوق عليه فى بعض المقطوعات التى أضفت عليها الروح المصرية والفكاهة القاهرية طابعاً مميزاً فريداً ، قلّ أن نجد له نظيراً ، إذ كان لايتحرج من التحدث عن الأعضاء الجنسية بأسلوب طريف مطبوع بالطابع الذاتى .

استمرت هذه المدرسة حتى عصرنا الحاضر ، ومن شعرائها مصطفى حمام ، وسبب بقائها أنها تمثل جانباً هاماً من نفسية الشعب المصرى المفطور على حب الفكاهة والنكتة .

مدرسة الفنون الشعبية المستحدثة

اخترع الأندلسيون الموشحات ، وقد ازدهرت على يد عبادة القزاز (المتوفى سنة ٤٣٣هـ) ، فانتقلت إلى المشرق ، ولقيت فيه رواجاً كبيراً ، فألف القاضى السعيد ابن سناء الملك « دار الطراز » ، وقد شرح فيه طريقة الموشحات ، وأورد بعد هذه المقدمة موشحاته التى كانت السبيل لمن جاء بعده من الوشاحين . وقد عرفنا أيضاً الموشحات لدى ابن نباتة ، وسنعرض لها بالشرح فى حديثنا عن شعره .

أما الزجل فقد نشأ أيضاً بالأندلس ، والفضل فى اختراعه إنما يعود للشعب الذى أراد من ذلك تقليد فن الموشحات بلغته العادية التى لا تتمسك بقواعد اللغة والإعراب . وضح لنا الحلى الفرق بين الموشح والزجل ، فذكر أن الناس يسمون كل ما أعرب موشحاً ، وكل ما خلا من الإعراب زجلا ،

وما اشترك فيه الإعراب واللحن مزنّماً فى أى فن قصد الناظم [١]

كثرت أوزان الأزجال حتى قيل : « صاحب ألف وزن ليس بزجال » . وقد انتشر بين شعراء العصر ، نذكر منهم الشيخ علاء الدين بن مقاتل إمام الزجالين ، وقد كان يفد على الملك المؤيد أبى الفداء ، وله قصة طريفة، جرت له فى هذا البلاط المؤيدى مع ابن نباتة والصفى الحلى ، سنوردها فى مكانها من هذه الرسالة .

يضاف إلى فن الموشحات والأزجال بعض الفنون الأخرى التى استحدثها المولدون كالدوبيت والقوما والكانكان والمواليا وغير ذلك من الفنون الشعبية الأخرى التى استحدثوها أو ولدوها ، كما هو الحال فى فن البلاليق

ظهر هذا الفن فى مصر والشام ، واشتق اسمه من اسم طائر جميل ، يدعى فى بلاد الشام بأبى بليق ، يجمع ريشه بين اللون الأبيض والأسود .

أورد يوسف المغربى فى كتابه (دفع الإصر عن كلام أهل مصر) المعروف باسم (قاموس العوام) ذكر (البليّق) و (البلّوق) و (المبلّق) و (البلاليق) . كما عرفت فى لغة العوامّ ، وأرجع بعضها إلى أصوله من القاموس المحيط :

« ويقولون : (قطع بلّيق لا حرث ولا درس) . و (بليق) كزبير : اسم فرس سباق ، ومع ذلك كان يعاب . قالوا : يجرى بليق ، ويذمّ بليق . يضرب فى المحسن يذمّ . انتهى من القاموس . إلاأن أهل مصر فى قولهم (قطع بليق لا حرث ولادرس) لا يريدون الفرس ، ولعله كان اسم ثور يستعمل فى الحراثة ، فحصل منه انقطاع عنهما .

ويقولون فى اصطلاح خيال الظل : (البلاليق) مفرده (البلوّق) كتنّور، الأرض التى لاتنبت . وموضع قرب كاظمة ، يزعمون أنه من مساكن الجن.

ويقولون : (صدره مكشوف مبلق) . وله أصل . قال : برق كفرح : تحير ، وكنصر بلوقاً : أسرع . وبلق الباب : فتحه كله أوفتحاً شديداً

---

(١) العاطل الحالى والمرخص الغالى ، ص ١٠ .

كأبلقه فانبلق وغلقه ، ضد ؛ والجارية افتضها »[١] .

ويبدو لنا أن أقرب الوجوه هو قوله عن البلاليق عند العامة فى اصطلاح خيال الظل ، فلعل هذا النوع من شعر البلاليق كان مستخدماً فى الحوار المسرحى آنذاك ، وهو بذلك يوضح جانباً هاماً من أصول هذا الفن الشعرى ، ويبرز بعض وجوه تطوره فى الأدب الشعبى .

أما وزنه فلا يخرج عن أوزان الزجل المعروفة ، وقد فرق الحلى بين الزجل والبليق ، فقال : « وقد قسمه مخترعوها على أربعة أقسام ، يفرق بينها بمضمونها المفهوم ، لا بالأوزان واللزوم ، فلقبوا ما تضمن الغزل والنسيب والخمرى والزهرى زجلا ، وما تضمن الهزل والخلاعة والإحماض بليقاً»[٢]. ولو عدنا إلى البليقة التى نظمها العوام فى عهد بيبرس الجاشنكير حين شح ماء النيل ، وكثر الغلاء والتى يطلبون فيها عودة الناصر محمد لعرشه ، لرأينا فيها الهزل الذى أشار إليه الحلى فى وصف الشعر البليق .

أورد كذلك الصفدى فى أعيان عصره ذكر بعض أصحاب البلاليق ، نذكر منهم تقى الإسنائى البمبانى[٣] ، وذكر أنه ضاعت له سكين ، فوجدها مع ابن المصوص الإسنائى ، فقال فيه :

إنكَ قذارى فى اللصوصْ ، يا بنَ المصوصْ
خُنيجرى كانَ فى الطبقْ
ومنتصـــر فى القـــولِ صدقْ
وأنتَ أخـــذْتَه بالسبقْ ، لعب الفصوصْ[٤]

---

(١) دفع الإصر عن كلام أهل مصر ، ل ٣٧ ب و ٣٨ أ . صور هذا المخطوط ، ووضع فهارسه الدكتور عبد السلام أحمد عواد ، وتم نشره مصوراً فى موسكو سنة ١٩٦٩ فى سلسلة الآداب الشرقية الصادرة عن أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتى وجامعة لينينغراد الدولية رقم ٢٣ .

(٢) تقى الدين البمبانى عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحيم بن على (المتوفى سنة ٧٠٥ هـ) .

(٣) أعيان العصر (مخطوط) جـ ٣ ق ٢ و ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

(٤) العاطل الحالى والمرخص الغالى ، ص ١٠ .

كما تحدث ابن تغرى بردى عن العالم الخليع ابن الصاحب ، وذكر أنه « نادرة زمانه فى المجون والهزل ، وإنشاد الأشعار والبليقات» [١] .

* * *

تلك هى صورة عابرة عن الحياة الفكرية : رسمناها بإيجاز ، وقد دلتنا على نمو هذه المعركة المباركة وازدهارها فى مختلف فنونها ، وقد توخينا من عرضها أن نعطى هذا العصر حقه ، بعد أن بخس زمناً طويلا بزعمهم أنه عصر عقم وجمود ، وهو بحق عصر إحياء التراث العربى وتجديده وازدهاره .

كما تدلنا دراسة هذا العصر على قيام وحدة شاملة ، وحدة سياسية بين الأقاليم العربية وبخاصة منها مصر والشام ، ووحدة فى الحياة الاجتماعية ، ووحدة فى الحياة الفكرية ، وقد دلتنا هذه على وحدة الشعوب والأمانى فى هذا العصر الزاهر الذى أنبت لنا ابن نباتة .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٧٨ .

obeikandl.com